بسم الله الرحمن الرحيم

٨١ ـ كتاب الرقاق

١ ـ باب ماجاءَ في الرِّقاق، وأن لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة

٦٤١٢ ـ عن ابن عباسٍ رضيَ الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ «نعمتانِ مَغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصِّحةُ، والفراغ».

٦٤١٣ ـ عن أنسٍ عن النبي ﷺ قال: «اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة، فأصلح الأنصارَ والمهاجِرة».

٦٤١٤ ـ عن سهلِ بن سَعدٍ الساعديِّ قال: كنا مع رسولِ الله ﷺ في الخندَق، وهو يَحفرُ ونحن ننقلُ الترابَ ويَصُرَّ بنا، فقال: «اللهم لا عيش إلا عيشُ الآخرة، فاغفر للأنصارِ والمهاجِرة».

قوله (بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب الرقاق. الصحة والفراغ[١] ولا عيش إلا عيش الآخرة) الرقاق والرقائق جمع رقيقة، وسميت هذه الأحاديث بذلك لأن في كل منها ما يحدث في القلب رقة. قال أهل اللغة: الرقة للرحمة وضد الغلظ.

قال ابن بطال: معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن، فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فمن فرط في ذلك فهو المغبون.

وأشار بقوله «كثير من الناس» إلى أن الذي يوفق لذلك قليل.

وقال ابن الجوزي: قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم.

٢ ـ باب مَثَل الدُّنيا في الآخرة

وقولهِ تعالى: {إنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولَهوٌ وزينةٌ وتَفاخرٌ بينكم وتَكاثرٌ في الأموالِ والأولاد، كمثل غَيثٍ أعجب الكفارَ نباتُهُ، ثم يَهيجُ فتراهُ مُصفَرّاً، ثم يكون حُطاماً، وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ ومَغفرةٌ منَ الله ورضوان، وما الحياةُ الدُّنيا إلا متَاعُ الغُرور} /الحديد: ٢٠/.

٦٤١٥ ـ عن سَهلٍ قال سمعتُ النبي ﷺ يقول: «مَوضعُ سَوطٍ في الجنة خير منَ الدنيا وما فيها».

(١) رواية الباب واليونينية "كتاب الرقاق، باب ما جاء في الرقاق وأن لا عيش إلا..."

قوله (باب مثل الدنيا في الآخرة) هذه الترجمة بعض لفظ حديث أخرجه مسلم والترمذي والنسائي من طريق قيس بن أبي حازم عن المستورد بن شداد رفعه «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع» وسنده إلى التابعي على شرط البخاري لأنه لم يخرج للمستورد.

قال القرطبي: هذا نحو قوله تعالى: {قل متاع الدنيا قليل} وهذا بالنسبة إلى ذاتها وأما بالنسبة إلى الآخرة فلا قدْر لها ولا خطر، وإنما أورد ذلك على سبيل التمثيل والتقريب وإلا فلا نسبة بين المتناهي وبين ما لا يتناهى، وإلى ذلك الإشارة بقوله «فلينظر بم يرجع» ووجهه أن القدر الذي يتعلق بالإصبع من ماء البحر لا قدر له ولا خطر، وكذلك الدنيا بالنسبة إلى الآخرة، والحاصل أن الدنيا كالماء الذي يعلق في الإصبع من البحر والآخرة كسائر البحر.

قال ابن عطية: المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية ما يختص بدار الدنيا من تصرف، وأما ما كان فيها من الطاعة وما لا بد منه مما يقيم الأود ويعين على الطاعة فليس مراداً هنا، والزينة ما يتزين به مما هو خارج عن ذات الشيء مما يحسن به الشيء، والتفاخر يقع بالنسب غالباً كعادة العرب، والتكاثر ذكر متعلقه في الآية، وصورة هذا المثال أن المرء يولد فينشأ فيقوى فيكسب المال والولد ويرأس، ثم يأخذ بعد ذلك في الانحطاط، فيشيب ويضعف ويسقم، وتصيبه النوائب من مرض ونقص مال وعز، ثم يموت فيضمحل أمره، ويصير ماله لغيره وتغير رسومه، فحاله كحال أرض أصابها مطر، فنبت عليها العشب نباتاً معجباً أنيقاً، ثم هاج أي يبس واصفر، ثم تحطم وتفرق إلى أن اضمحل، قال: واختلف في المراد بالكفار، فقيل: جمع كافر بالله لأنهم أشد تعظيماً للدنيا وإعجاباً بمحاسنها. وقيل المراد: بهم الزراع مأخوذ من كفر الحب في الأرض أي ستره بها، وخصهم بالذكر لأنهم أهل البصر بالنبات فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقه. انتهى ملخصاً، ولما أورد الغزالي حديث المستورد في الإحياء عقّبه بأن قال ما ملخصه: اعلم أن مثل أهل الدنيا في غفلتهم كمثل قوم ركبوا سفينة فانتهوا إلى جزيرة معشبة فخرجوا لقضاء الحاجة فحذرهم الملاح من التأخر فيها وأمرهم أن يقيموا بقدر حاجتهم وحذرهم أن يقلع بالسفينة ويتركهم، فبادر بعضهم فرجع سريعاً فصادف أحسن الأمكنة وأوسعها فاستقر فيه، وانقسم الباقون فرقاً، الأولى استغرقت في النظر إلى أزهارها المونقة وأنهارها المطردة وثمارها الطيبة وجواهرها ومعادنها، ثم استيقظ، فبادر إلى السفينة فلقي مكاناً دون الأول فنجا في الجملة، الثانية كالأولى لكنها أكبّت على تلك الجواهر والثمار والأزهار ولم تسمح نفسه لتركها فحمل منها ما قدر عليه فتشاغل بجمعه وحمله فوصل إلى السفينة فوجد مكاناً أضيق من الأول ولم تسمح نفسه

برمي ما استصحبه فصار مثقلاً به، ثم لم يلبث أن ذبلت الأزهار، ويبست الثمار، وهاجت الرياح فلم يجد بداً من إلقاء ما استصحبه حتى نجا بحشاشة نفسه، الثالثة تولجت في الغياض، وغفلت عن وصية الملاح، ثم سمعوا نداءه بالرحيل فمرت فوجدت السفينة سارت فبقيت بما استصحبت في البر حتى هلكت، والرابعة اشتدت بها الغفلة عن سماع النداء وسارت السفينة فتقسموا فرقاً منهم من افترسته السباع ومنهم من تاه على وجهه حتى هلك ومنهم من مات جوعاً ومنهم من نهشته الحيات، قال: فهذا مثل أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة وغفلتهم عن عاقبة أمرهم. ثم ختم بأن قال: وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن يغتر بالأحجار من الذهب والفضة والهشيم من الأزهار والثمار وهو لا يصحبه شيء من ذلك بعد الموت. والله المستعان.

٣ ـ باب قولِ النبيِّ ﷺ «كن في الدنيا كأنكَ غَريب، أو عابرُ سَبيل».

٦٤١٦ ـ عن عبدِ الله بن عمرَ رضيَ الله عنهما قال: أخذ رسولُ الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدُّنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سَبيل». وكان ابنُ عمرَ يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتَظرِ الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء. وخُذْ من صحتِكَ لمرضِك، ومن حَياتِك لموتك».

قوله (أخذ رسول الله ﷺ بمنكِبي) والمنكِب مجمع العضد والكتف.

قوله (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) قال الطيبي: ليست أو للشك بل للتخيير والإباحة، والأحسن أن تكون بمعنى بل، فشبه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه ولا مسكن يسكنه، ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع وبينهما أودية مردية ومفاوز مهلكة وقطاع طريق فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لمحة، ومن ثم عقبه بقوله «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح الخ» وبقوله «وعُدَّ نفسك في أهل القبور» والمعنى استمر سائراً ولا تفتر، فإنك إن قصرت انقطعت وهلكت في تلك الأودية. وهذا معنى المشبه به، وأما المشبه فهو قوله «وخذ من صحتك لمرضك» أي أن العمر لا يخلو عن صحة ومرض، فإذا كنت صحيحاً فسر سير القصد وزد عليه بقدر قوتك ما دامت فيك قوة بحيث يكون ما بك من الزيادة قائماً مقام ما لعله يفوت حالة المرض والضعف.

وقال غيره: هذا الحديث أصل في الحث على الفراغ عن الدنيا والزهد فيها والاحتقار لها والقناعة فيها بالبلغة.

وقال النووي: معنى الحديث لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا ولا تحدِّث نفسك بالبقاء فيها ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه، وقال غيره: عابر السبيل هو

المار على الطريق طالباً وطنه، فالمرء في الدنيا كعبد أرسله سيده في حاجة إلى غير بلده فشأنه أن يبادر بفعل ما أرسل فيه ثم يعود إلى وطنه ولا يتعلق بشيء غير ما هو فيه.

قوله (وخذ من صحتك) أي زمن صحتك (لمرضك) والمعنى اشتغل في الصحة بالطاعة بحيث لو حصل تقصير في المرض لا يجبر بذلك.

قوله (ومن حياتك لموتك) وجاء معناه من حديث ابن عباس أيضاً مرفوعاً أخرجه الحاكم «أن النبي ﷺ قال: لرجل وهو يعظه: اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» وأخرجه ابن المبارك في الزهد بسند صحيح من مرسل عمرو بن ميمون، قال بعض العلماء: كلام ابن عمر منتزع من الحديث المرفوع، وهو متضمن لنهاية قصر الأمل، وأن العاقل ينبغي له إذا أمسى لا ينتظر الصباح وإذا أصبح لا ينتظر المساء، بل يظن أن أجله مدركه قبل ذلك.

قال: وقوله «خذ من صحتك الخ» أي اعمل ما تلقى نفعه بعد موتك، وبادر أيام صحتك بالعمل الصالح فإن المرض قد يطرأ فيمتنع من العمل فيخشى على من فرط في ذلك أن يصل إلى المعاد بغير زاد، ولا يعارض ذلك الحديث الماضي في الصحيح «إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً» لأنه ورد في حق من يعمل، والتحذير الذي في حديث ابن عمر في حق من لم يعمل شيئاً، فإنه إذا مرض ندم على تركه العمل، وعجز لمرضه عن العمل فلا يفيده الندم، وفي الحديث حرص النبي ﷺ على إيصال الخير لأمته، والحض على ترك الدنيا والاقتصار على ما لا بد منه.

٤ ـ باب في الأملِ وطُولِهِ

وقولِ الله تعالى: {فمن زُحْزِحَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياةُ الدنيا إلاَّ متاعُ الغُرور}/آل عمران: ١٨٥/.{ذَرهُم يأكلوا ويتمتَّعوا ويُلهِهُم الأمل، فسوفَ يعلمون} /الحجر: ٣/ وقال عليٌّ بن أبي طالب: «ارتحلَتِ الدنيا مُدبرة، وارتحلَت الآخرةُ مُقبلة، ولكلٍّ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناءِ الدُّنيا؛ فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل». {بمزَحزِحه} /البقرة:٩٦/: بمباعده

٦٤١٧ ـ عن عبدِ الله رضيَ الله عنه قال: خَطَّ النبيُّ ﷺ خَطاً مُرَبعاً، وخط خَطاً في الوسَطِ خارجاً منه، وخط خُططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسَط من جانبهِ الذي في الوسط وقال: «هذا الإنسان؛ وهذا أجَلهُ محيطٌ به -أو قد أحاط به- وهذا الذي هو خارجٌ أمَله، وهذا الخُططُ الصغارُ الأعراض، فإن أخْطأهُ هذا نهشَهُ هذا، وإن أخطأهُ هذا نهشَهُ هذا».

٦٤١٨ ـ عن أنسِ بن مالك قال: خَطَّ النبي ﷺ خُطوطاً فقال: «هذا الأمل وهذا أجَله،

فبينما هو كذلك إذ جاءَهُ الخَط الأقرب».

قوله (باب في الأمَل وطوله) الأمل رجاء ما تحبه النفس من طول عمر وزيادة غنى، وهو قريب المعنى من التمني، وقيل الفرق بينهما أن الأمل ما تقدم له سبب والتمني بخلافه، وقيل لا ينفك الإنسان من أمل، فإن فاته ما أمّله عوّل على التمني، ويقال الأمل إرادة الشخص تحصيل شيء يمكن حصوله فإذا فاته تمناه.

قوله (وقوله[1] ذرهم يأكلوا ويتمتعوا الآية) قال الجمهور هي عامة، وقال جماعة هي في الكفار خاصة والأمر فيه للتهديد، وفيه زجر عن الانهماك في ملاذ الدنيا، وورد في ذم الاسترسال مع الأمل حديث أنس رفعه «أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا» أخرجه البزار، وعن عبد الله بن عمرو رفعه «صلاح أول هذه الأمة بالزهادة واليقين، وهلاك آخرها بالبخل والأمل» أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا، وقيل أن قصر الأمل حقيقة الزهد، وليس كذلك بل هو سبب، لأن من قصر أمله زهد، ويتولد من طول الأمل الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة في الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب، لأن رقته وصفاءه إنما يقع بتذكير الموت والقبر والثواب والعقاب وأهوال القيامة كما قال تعالى: {فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم} وقيل: من قصر أمله قل همُّه وتنور قلبه، لأنه إذا استحضر الموت اجتهد في الطاعة، وقل همه ، ورضي بالقليل، وقال ابن الجوزي: الأمل مذموم للناس إلا للعلماء، فلولا أملهم لما صنّفوا ولا ألفوا، وقال غيره: الأمل مطبوع في جميع بني آدم كما سيأتي في الحديث الذي في الباب بعده «لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين حب الدنيا وطول الأمل» وفي الأمر سر لطيف لأنه لولا الأمل ما تهنى أحد بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه وعدم الاستعداد لأمر الآخرة، فمن سلم من ذلك لم يكلف بإزالته، وفي الحديث إشارة إلى الحض على قصر الأمل والاستعداد لبغتة الأجل، وعبر بالنهش وهو لدغ ذات السم مبالغة في الإصابة والإهلاك.

٥ ـ باب من بلغ ستين سنةً فقد أعذرَ الله إليه في العُمر

لقوله تعالى {أوَلَم نُعمِّركم ما يتَذكرُ فيه من تذكر، وجاءكُم النَّذير} /فاطر:٣٧/.

٦٤١٩ ـ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «أعذرَ الله إلى امرىء أخَّرَ أجَله حتى بَلَّغَهُ ستين سنة».

٦٤٢٠ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يزالُ قلبُ

(١) رواية الباب واليونينية "ذرهم يأكلوا" بدون (قوله)

الكبير شاباً في اثنتَين: في حب الدنيا، وطُول الأمل».

٦٤٢١ ـ عن أنسٍ رضيَ الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَكبر ابنُ آدمَ ويَكبرُ معهُ اثنتان: حب المال، وطول العمر».

قوله (باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، لقوله تعالى: أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) وفي رواية النسفي «يعني الشيب» وقد اختلف أهل التفسير فيه فالأكثر على أن المراد به الشيب لأنه يأتي في سن الكهولة فما بعدها، وهو علامة لمفارقة سن الصِّبَى الذي هو مظنة اللهو، وقال علي: المراد به النبي ﷺ، واختلفوا أيضاً في المراد بالتعمير في الآية على أقوال: أحدها أنه أربعون سنة، نقله الطبري عن مسروق وغيره، وكأنه أخذه من قوله «بلغ أشده وبلغ أربعين سنة».

الرابع: ستون، وتمسك قائله بحديث الباب وورد في بعض طرقه التصريح بالمراد.

قوله (أعذر الله) الإعذار إزالة العذر، والمعنى أنه لم يبق له اعتذار كأن يقول لو مد لي في الأجل لفعلت ما أمرت به، يقال أعذر إليه إذا بلغه أقصى الغاية في العذر ومكنه منه.

وإذا لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل له فلا ينبغي له حينئذ إلا الاستغفار والطاعة والإقبال على الآخرة بالكلية.

قال ابن بطال: إنما كانت الستون حداً لهذا لأنها قريبة من المعترك وهي سن الإنابة والخشوع وترقب المنية فهذا إعذار بعد إعذار لطفاً من الله بعباده حتى نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم، ثم أعذر إليهم فلم يعاقبهم إلا بعد الحجج الواضحة، وإن كانوا فطروا على حب الدنيا وطول الأمل، لكنهم أمروا بمجاهدة النفس في ذلك ليمتثلوا ما أمروا به من الطاعة وينزجروا عما نهوا عنه من المعصية.

وفي الحديث إشارة إلى أن استكمال الستين مظنة لانقضاء الأجل.

وأصرح من ذلك ما أخرجه الترمذي بسند حسن. عن أبي هريرة رفعه «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين» وأقلهم من يجوز ذلك».

٦ ـ باب العملِ الذي يُبتغى به وجهُ الله. فيه سعدٌ

٦٤٢٢ ـ عن محمود بن الربيع -وزعمَ محمود أنَّه عَقِل رسولَ الله ﷺ، وقال: «وعقل مجَّة مجَّها من دَلْو كانت في دارهم».

٦٤٢٣ ـ قال: «سمعتُ عِتبانَ بن مالك الأنصاريَّ ثم أحدَ بني سالم قال: غَدا عليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: لن يُوافيَ عبد يومَ القيامةِ لا إلهَ إلا الله يَبْتغي بها وَجهَ اللهِ إلا حرَّمَ اللهُ عليه النار».

٦٤٢٤ ـ عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ: قال: يقولُ اللهُ تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جَزاءٌ إذا قَبَضتُ صَفيَّه من أهلِ الدنيا ثمَّ احتَسبَه إلا الجنَّة».

قوله (باب العمل الذي يبتغى به وجه الله تعالى) ثبتت هذه الترجمة للجميع، وسقطت من شرح ابن بطال فأضاف حديثها عن عتبان الذي قبله، ثم أخذ في بيان المناسبة لترجمة من بلغ ستين سنة فقال: خشي المصنِّف أن يظن أن من بلغ الستين وهو مواظب على المعصية أن ينفذ عليه الوعيد، فأورد هذا الحديث المشتمل على أن كلمة الإخلاص تنفع قائلها؛ إشارة إلى أنها لا تخص أهل عمر دون عمر ولا أهل عمل دون عمل، قال: ويستفاد منه أن التوبة مقبولة ما لم يصل إلى الحد الذي ثبت النقل فيه أنها لا تقبل معه وهو الوصول إلى الغرغرة.

قوله (إذا قبضت صَفيَّه) وهو الحبيب المصافي كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان، والمراد بالقبض قبض روحه وهو الموت.

قوله (ثم احتسبه إلا الجنة) المراد باحتسبه صبر على فقده راجياً الأجر من الله على ذلك.

٧ ـ باب ما يُحذَرُ من زهرةِ الدنيا، والتَّنافسِ فيها

٦٤٢٥ ـ عن عمروُ بنَ عوف ـوهو حَليفٌ لبني عامر بن لؤي كانَ شهدَ بدَراً مع رسولِ الله ﷺ «أن رسولَ الله ﷺ بعثَ أبا عُبَيدةَ بن الجراح إلى البَحرَينِ يأتي بجزيْتها، وكان رسولُ الله ﷺ هو صالحَ أهلَ البَحرين وأمَّرَ عليهمُ العَلاء بنَ الحضرَمي، فقدمَ أبو عُبيدةَ بمال منَ البحرين، فسمعَتِ الأنصار بقدومه، فوافقت صلاةَ الصبح معَ رسول الله ﷺ، فلما انصرَفَ تعرَّضوا له، فتبسمَ رسولُ الله ﷺ حينَ رآهم وقال: أظنُّكم سمعتم بقدوم أبي عُبَيدةَ وأنه جاء بشيء؟ قالوا: أجَلْ يا رسولَ الله، قال: فأبشروا وأمِّلوا ما يسركُم، فوَ الله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسطَ عليكمُ الدُنيا كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافَسوها كما تَنافسوها، وتلهيَكم كما ألهتْهم».

٦٤٢٦ ـ عن عُقبةَ بن عامرٍ أنَّ رسول الله ﷺ خرجَ يوماً فصلى على أهلِ أحدٍ صلاتَه على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فَرطُكم، وأنا شهيدٌ عليكم. وإني والله لأنظرُ إلى حَوضي الآن،وإني قد أُعطيتُ مفاتيحَ خَزائن الأرض ـأو مفاتيح الأرض- وإني والله ما أخاف عليكم أن تُشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تَنافسوا فيها».

٦٤٢٧ ـ عن أبي سعيدٍ الخُدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أكثرَ ما أخافُ عليكم ما يخرج اللهُ لكم من بركاتِ الأرض؟ قيل وما بركات الأرض؟ قال: زَهرة الدنيا. فقال له رجلٌ: هل يأتي الخيرُ بالشرِّ؟ فصمتَ النبيُّ ﷺ حتى ظننتُ أنه يُنزَل عليه، ثم جعلَ يَمسحُ

عن جَبينِه، فقال: أين السائل؟ قال: أنا. قال أبو سعيدٍ: لقد حمدْناهُ حينَ طلعَ لذلك، قال: لا يأتي الخيرُ إلا بالخير. إنّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلوة، وإنّ كلَّ ما أنبتَ الربيعُ يَقتُلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ، إلا آكلةَ الخضرة، أكلتْ حتى إذا امتدَّت خاصرتاها استقبَلَتِ الشمسَ فاجترَّت وثَلَطت وبالت، ثم عادت فأكلت. وإنَّ هذا المالَ حلوةٌ: من أخذَه بحقه، ووَضَعَهُ في حقه، فنعمَ المعونة هوَ وإن أخذَهُ بغيرِ حقه كان كالذي يأكل ولا يَشبَع».

٦٤٢٨ ـ عن عِمران بن حصَيْن رضي الله عنهما عنِ النبيِّ ﷺ قال: «خَيركم قَرني، ثم الذينَ يَلونهم وقال عِمران: فما أدري قال النبيُّ ﷺ بعد قوله مرَّتين أو ثلاث، ثمَّ يكون بعدَهم قوم يَشهدون ولا يُستشهدون، ويَخونون ولا يؤتَمنون، ويَنذُرونَ ولا يوفون، ويَظهرُ فيهم السِّمَن».

٦٤٢٩ ـ عن عبد الله رضيَ الله عنه عنِ النبي ﷺ قال: «خيرُ الناس قَرْني، ثم الذين يَلونَهم، ثم الذين يَلونهم، ثم يَجيءُ من بعدِهم قومٌ تَسبقُ شَهادَتُهُم أيمانَهم، وأيمانُهم شهادتَهم».

٦٤٣٠ ـ عن خَباب -وقد اكتوَى يومَئذٍ سَبْعاً في بطنه- وقال: «لولا أنَّ رسولَ الله ﷺ نهانا أن نَدْعوَ بالموت لدَعَوتُ بالموت، إن أصحابَ محمدٍ ﷺ مَضَوا ولم تَنقُصْهم الدنيا بشيء، وإنا أصبنا من الدنيا ما لا نجدُ له مَوضعاً إلا التُّراب».

٦٤٣١ ـ عن قيس قال: «أتيتُ خَباباً وهو يبني حائطاً له فقال: إن أصحابنا الذين مَضوا لم تَنقُصهم الدنيا شيئا، وإنا أصَبنا من بعدِهم شيئاً لا نجدُ له. مَوضعاً إلا في التراب».

٦٤٣٢ ـ عن خبابٍ رضيَ الله عنه قال: «هاجَرْنا مع رسولِ الله ﷺ...».

قوله (باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها) المراد بزهرة الدنيا بهجتها ونضارتها وحسنها، والتنافس يأتي بيانه في الباب.

قوله (فو الله ما الفقر أخشى عليكم) هذه الخشية يحتمل أن يكون سببها علمه أن الدنيا ستفتح عليهم ويحصل لهم الغنى بالمال، وقد ذكر ذلك في أعلام النبوة مما أخبر ﷺ بوقوعه قبل أن يقع فوقع.

قوله (فتنافسوها) والتنافس من المنافسة وهي الرغبة في الشيء ومحبة الانفراد به والمغالبة عليه.

قوله (فتهلككم[١]) أي لأن المال مرغوب فيه فترتاح النفس لطلبه فتمنع منه فتقع العداوة المقتضية للمقاتلة المفضية إلى الهلاك.

قال ابن بطال: فيه أن زهرة الدنيا ينبغي لمن فتحت عليه أن يحذر من سوء عاقبتها وشر

(١) رواية الباب واليونينية "فتلهيكم"

فتنتها، فلا يطمئن إلى زخرفها ولا ينافس غيره فيها.

قوله (زهرة الدنيا) المراد ما فيها من أنواع المتاع والعين والثياب والزروع وغيرها مما يفتخر الناس بحسنه مع قلة البقاء.

قوله (وإن كل ما أنبت الربيع) أي الجدول.

قوله (يقتل حبطاً أو يلم) والحبط انتفاخ البطن من كثرة الأكل يقال حبطت الدابة تحبط حبطاً إذا أصابت مرعى طيباً فأمعنت في الأكل حتى تنتفخ فتموت.

وقوله «يُلم» أي يقرب من الهلاك.

قوله (اجترت) أي استرفعت ما أدخلته في كرشها من العلف فأعادت مضغه.

قوله (وثلطت) أي ألقت ما في بطنها رقيقاً، والمعنى أنها إذا شبعت فثقل عليها ما أكلت تحيلت في دفعه بأن تجتر فيزداد نعومة، ثم تستقبل الشمس فتحمى بها فيسهل خروجه؛ فإذا خرج زال الانتفاخ فسلمت، وهذا بخلاف من لم تتمكن من ذلك فإن الانتفاخ يقتلها سريعاً.

وقال الزين بن المنير: آكلة الخضر هي بهيمة الأنعام التي ألف المخاطبون أحوالها في سومها ورعيها وما يعرض لها من البشم وغيره، والخضر النبات الأخضر وقيل حرار العشب التي تستلذ الماشية أكله فتستكثر منه، وقيل هو ما ينبت بعد إدراك العشب وهياجه فإن الماشية تقتطف منه مثلاً شيئاً فشيئا ولا يصيبها منه ألم، وهذا الأخير فيه وليس المراد أن آكلة الخضر لا يحصل لها من أكله ضرر البتة، والمستثنى آكلة الخضر بالوصف المذكور لا كل من اتصف بأنه آكلة الخضر.

وقال الطيبي: يؤخذ منه أربعة أصناف: فمن أكل منه أكْل مستلذ مفرط منهمك حتى تنتفخ أضلاعه ولا يقلع فيسرع إليه الهلاك، ومن أكل كذلك لكنه أخذ في الاحتيال لدفع الداء بعد أن استحكم فغلبه فأهلكه، ومن أكل كذلك لكنه بادر إلى إزالة ما يضره وتحيل في دفعه حتى انهضم فيسلم، ومن أكل غير مفرط ولا منهمك وإنما اقتصر على ما يسد جوعته ويمسك رمقه.فالأول مثال الكافر، والثاني مثال للعاصي الغافل عن الإقلاع والتوبة إلا عند فوتها، والثالث مثال للمخلط المبادر للتوبة حيث تكون مقبولة، والرابع مثال الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، وبعضها لم يصرح به في الحديث وأخذه منه محتمل.

وقال الزين بن المنير: في هذا الحديث وجوه من التشبيهات بديعة: أولها تشبيه المال ونموه بالنبات وظهوره، ثانيها تشبيه المنهمك في الاكتساب والأسباب بالبهائم المنهمكة في الأعشاب، وثالثها تشبيه الاستكثار منه والادخار له بالشره في الأكل والامتلاء منه،

ورابعها تشبيه الخارج من المال مع عظمته في النفوس حتى أدى إلى المبالغة في البخل به بما تطرحه البهيمة من السلح ففيه إشارة بديعة إلى استقذاره شرعاً، وخامسها تشبيه المتقاعد عن جمعه وضمه بالشاة إذا استراحت وحطت جانبها مستقبلة عين الشمس فإنها من أحسن حالاتها سكونا وسكينة وفيه إشارة إلى إدراكها لمصالحها، وسادسها تشبيه موت الجامع المانع بموت البهيمة الغافلة عن دفع ما يضرها، وسابعها تشبيه المال بالصاحب الذي لا يؤمن أن ينقلب عدواً، فإن المال من شأنه أن يحرز ويشد وثاقه حباً له وذلك يقتضي منعه من مستحقه فيكون سبباً لعقاب مقتنيه «ثامنها تشبيه آخذه بغير حق بالذي يأكل ولا يشبع.

وقال الغزالي: «مثل المال مثل الحية التي فيها ترياق نافع وسم ناقع، فإن أصابها العارف الذي يحترز عن شرها ويعرف استخراج ترياقها كان نعمة، وإن أصابها الغبي فقد لقي البلاء المهلك».

وفي الحديث جلوس الإمام على المنبر عند الموعظة في غير خطبة الجمعة ونحوها، وفيه جلوس الناس حوله والتحذير من المنافسة في الدنيا، وفيه استفهام العالم عما يشكل وطلب الدليل لدفع المعارضة، وفيه تسمية المال خيراً، ويؤيده قوله تعالى {وإنه لحب الخير لشديد} وفي قوله تعالى: {إن ترك خيرا} وفيه ضرب المثل بالحكمة، وفيه أنه ﷺ كان ينتظر الوحي عند إرادة الجواب عما يسئل عنه، وهذا على ما ظنه الصحابة، ويجوز أن يكون سكوته ليأتي بالعبارة الوجيزة الجامعة المفهمة.

ويستفاد منه ترك العجلة في الجواب إذا كان يحتاج إلى التأمل، وفيه لوم من ظن به تعنت في السؤال وحمد من أجاد فيه، وفيه الحض على إعطاء المسكين واليتيم وابن السبيل، وفيه أن المكتسب للمال من غير حله لا يبارك له فيه لتشبهه بالذي يأكل ولا يشبع، وفيه ذم الإسراف وكثرة الأكل والنهم فيه، وأن اكتساب المال من غير حله وكذا إمساكه عن إخراج الحق منه سبب لمحقه فيصير غير مبارك كما قال تعالى {يمحق الله الربا ويربي الصدقات}.

وقد تقدم شرح هذا الحديث في الشهادات(١)وفي أول فضائل الصحابة(٢).

٨ ـ باب قول الله تعالى

{يا أيها الناسُ إن وَعدَ الله حقٌ؛ فلا تَغرنَّكمُ الحياة الدُنيا، ولا يَغُرنَّكمْ بالله الغَرور، إن الشيطانَ لكم عدُوٌ فاتخذوهُ عدُوا، إنما يَدعو حزبَهُ ليكونوا مَن أصحابالسَّعير} /فاطر:٥،٦/. جمعُهُ: سُعُر. قال مجاهد: الغَرورُ الشيطان.

(١) كتاب الشهادات باب / ٩ ح ٢٦٥١ - ٢ / ٤٧٢
(٢) كتاب فضائل الصحابة باب / ١ ح ٣٦٥٠ - ٢ /١٢٦

٦٤٣٣ ـ عن ابنِ أبانَ قال: «أتيت عثمانَ بن عفانَ بطهور وهو جالسٌ على المقاعِد فتوضأ فأحسنَ الوضوءَ ثم قال: رأيت النبي ﷺ تَوضأ وهو في هذا المجلس فأحسنَ الوضوءَ ثم قال: من توضأ مثلَ هذا الوضوء ثم أتى المسجدَ فركعَ ركعَتين ثم جَلس غُفِرَ له ما تقدم من ذَنبه». قال: وقال النبيُّ ﷺ: «لا تَغتَرُّوا».

قوله (قال: وقال النبي ﷺ لا تغتروا) قدمت شرحه في الطهارة[١] وحاصله لا تحملوا الغفران على عمومه في جميع الذنوب فتسترسلوا في الذنوب اتكالاً على غفرانها بالصلاة، فإن الصلاة التي تكفر الذنوب هي المقبولة ولا اطلاع لأحد عليه.

وظهر لي جواب آخر وهو أن المكَفر بالصلاة هي الصغائر فلا تغتروا فتعملوا الكبيرة بناء على تكفير الذنوب بالصلاة فإنه خاص بالصغائر، أو لا تستكثروا من الصغائر فإنها بالإصرار تعطى حكم الكبيرة فلا يكفرها ما يكفر الصغيرة، أو أن ذلك خاص بأهل الطاعة فلا يناله من هو مرتبك في المعصية. والله أعلم.

٩ ـ باب ذهاب الصالحين ويقال: الذهاب المطر

٦٤٣٤ ـ عن مِرْداسٍ الأسْلمي قال: قال النبيُّ ﷺ «يَذهَب الصالحونَ الأول فالأول، ويَبقى حفالة كحفالةِ الشَّعير أو التمر لا يباليهم الله بالةً». قال أبو عبد الله: يقال حفالة وحثالة.

قوله (باب ذهاب الصالحين) أي موتهم.

قوله (كحثالة[٢] الشعير أو التمر) قال الخطابي: الحثالة الرديء من كل شيء. وقال ابن التين: الحثالة سقط الناس.

قوله (لا يباليهم الله بالة) قال الخطابي: أي لا يرفع لهم قدراً ولا يقيم لهم وزنا.

قال ابن بطال: في الحديث أن موت الصالحين من أشراط الساعة، وفيه الندب إلى الاقتداء بأهل الخير، والتحذير من مخالفتهم خشية أن يصير من خالفهم ممن لا يعبأ الله به، وفيه أنه يجوز انقراض أهل الخير في آخر الزمان حتى لا يبقى إلا أهل الشر، واستدل به على جواز خلو الأرض من عالم حتى لا يبقى إلا أهل الجهل صرفاً، ويؤيده الحديث الآتي في الفتن «حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا».

١٠ ـ باب ما يُتقى من فتنةِ المال

وقولِ الله تعالى {إنما أموالكم وأولادكم فتنة} /التغابن: ١٥/.

(١) كتاب الوضوء باب / ٢٤ ح ١٥٩ - ١ / ١٤٠
(٢) رواية الباب واليونينية [كحفالة]

٦٤٣٥ - عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: قال رسولُ اللهُ ﷺ «تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ والدِّرهم والقَطيفةِ والخَميصة، إن أُعطيَ رَضيَ وإن لم يُعطَ لم يَرْضَ».

٦٤٣٦ - عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما يقول: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «لو كان لابن آدمَ واديانِ من مال لابتغى ثالثاً، ولا يَملأ جَوف ابن آدمَ إلا التراب، ويتوب اللهُ على مَن تاب».

[الحديث ٦٤٣٦ - طرفه في: ٦٤٣٧]

٦٤٣٧ - عن ابن عباسٍ يقول سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «لو أنَّ لابنِ آدمَ مِلءَ وادٍ مالاً لأحبَّ أن له إليه مِثلَه؛ ولا يَملأ عينَ ابن آدمَ إلا التراب، ويتوبُ الله عَلَى من تاب».

٦٤٣٨ - عن عباس بن سهلِ بن سعدٍ قال: «سمعتُ ابنَ الزُّبير على المنبر بمكةَ في خُطبَتهِ يقول: يا أيها الناسُ، إنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: لو أنَّ ابن آدمَ أُعطِيَ وادياً مَلآنَ من ذهبٍ أحبَّ إليه ثانيا، ولو أعطيَ ثانياً أحبَّ إليه ثالثاً، ولا يَسُدُّ جَوفَ ابن آدمَ إلا التراب. ويَتوبُ الله عَلَى من تاب».

٦٤٣٩ - عن أنس بن مالك أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لو أنَّ لابن آدمَ وادياً من ذهبٍ أحبَّ أن يكون له واديانِ، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوبُ الله على من تاب».

٦٤٤٠ - عن أنسٍ عن أُبيِّ قال: «كنا نرى هذا من القرآنِ حتى نزَلت{ألهاكمُ التَّكاثر}».

قوله (من فتنة المال) أي الالتهاء به.

قوله (وقول الله تعالى: إنما أموالكم وأولادكم فتنة)أي تشغل البال عن القيام بالطاعة. وأما الفتنة بالولد فورد فيه ما أخرجه أحمد وأ صحاب السنن وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث بريدة قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يعثران فنزل عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: صدق الله ورسوله، إنما أموالكم وأولادكم فتنة» الحديث وظاهر الحديث أن قطع الخطبة والنزول لهما فتنة دعا إليها محبة الولد فيكون مرجوحاً، والجواب أن ذلك إنما هو في حق غيره، وأما فعل النبي ﷺ ذلك فهو لبيان الجواز فيكون في حقه راجحاً، ولا يلزم من فعل الشيء لبيان الجواز أن لا يكون الأولى ترك فعله ففيه تنبيه على أن الفتنة بالولد مراتب، وإن هذا من أدناها، وقد يجر إلى ما فوقه فيحذر.

قوله (تعس) أي سقط والمراد هنا هلك، وقال ابن الأنباري: التعس الشر، قال تعالى: {فتعساً لهم} أراد ألزمهم الشر.

قوله (عبد الدينار) أي طالبُهُ الحريصُ على جمعه القائم على حفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبده.

قال الطيبي:قيل خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها كالأسير الذي لا يجد خلاصاً، ولم يقل مالك الدينار ولا جامع الدينار لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة. وقوله «إن أعطى الخ» يؤذن بشدة الحرص على ذلك، وقال غيره: جعله عبداً لهما لشغفه وحرصه، فمن كان عبداً لهواه لم يصدق في حقه {إياك نعبد} فلا يكون من اتصف بذلك صديقاً.

قوله (والقطيفة) هي الثوب الذي له خمل «والخميصة الكساء المربع» وقد تقدم الحديث، في كتاب الجهاد، وقوله وانتكس أي عاوده المرض فعلى ما تقدم من تفسير التعس بالسقوط يكون المراد أنه إذا قام من سقطته عاوده السقوط، ويحتمل أن يكون المعنى بانتكس بعد تعس انقلب على رأسه بعد أن سقط.

«وإذا شيك» أي إذا دخلت فيه شوكة لم يجد من يخرجها بالمنقاش وهو معنى قوله فلا انتقش، ويحتمل أن يريد لم يقدر الطبيب أن يخرجها.

وفيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يثبطه عن السعي والحركة، وسوغ الدعاء عليه كونه قصر عمله على جمع الدنيا واشتغل بها عن الذي أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات.

قال الطيبي: وإنما خص انتقاش الشوكة بالذكر لأنه أسهل ما يتصور من المعاونة، فإذا انتفى ذلك الأسهل انتفى ما فوقه بطريق الأولى.

قوله في الطريق الثانية لابن عباس (ويتوب الله على من تاب) أي إن الله يقبل التوبة من الحريص كما يقبلها من غيره، قيل وفيه إشارة إلى ذم الاستكثار من جمع المال وتمني ذلك والحرص عليه، للإشارة إلى أن الذي يترك ذلك يطلق عليه أنه تاب، ويحتمل أن يكون تاب بالمعنى اللغوي وهو مطلق الرجوع أي رجع عن ذلك الفعل والتمني.

وقال الطيبي: يمكن أن يكون معناه أن الآدمي مجبول على حب المال وأنه لا يشبع من جمعه إلا من حفظه الله تعالى ووفقه لإزالة هذه الجبلة عن نفسه وقليل ما هم.

قوله (عبد الرحمن بن سليمان بن الغسيل) أي غسيل الملائكة وهو حنظلة بن أبي عامر الأوسي.

قال ابن بطال وغيره: قوله {ألهاكم التكاثر} خرج على لفظ الخطاب لأن الله فطر الناس على حب المال والولد فلهم رغبة في الاستكثار من ذلك، ومن لازم ذلك الغفلة عن القيام بما أمروا به حتى يفجأهم الموت، وفي أحاديث الباب ذم الحرص والشره، ومن ثم آثر أكثر السلف التقلل من الدنيا والقناعة باليسير والرضا بالكفاف، ووجه ظنهم أن الحديث المذكور من القرآن ما تضمنه من ذم الحرص على الاستكثار من جمع المال والتقريع بالموت الذي

يقطع ذلك ولا بد لكل أحد منه، فلما نزلت هذه السورة وتضمنت معنى ذلك مع الزيادة عليه علموا أن الأول من كلام النبي ﷺ.

١١ ـ باب قولِ النبيِّ ﷺ «هذا المال خَضرة حُلوة» وقوله تعالى

{زُين للناس حبُّ الشهوَاتِ من النساءِ والبَنينَ والقَناطيرِ المقَنطَرةِ منَ الذهب والفِضّةِ والخيلِ المسوَّمةِ والأنعام والحَرْث، ذلكَ متاعُ الحياةِ الدنيا} /آل عمران: ١٤/. قال عمرُ اللهم إنا لا نَستطيعُ إلا أن نَفرَحَ بما زيَّنتَهُ لنا، اللهمَّ إني أسألك أن أنفِقَهُ في حقه

٦٤٤١ ـ عن حَكيم بن حِزامٍ قال: «سألتُ النبيَّ ﷺ فأعطاني، ثم سألتهُ فأعطاني ثم سألته فأعطاني، ثم قال: إن هذا المالَ وربما قال سفيانُ: قال لي يا حكيم إن هذا المالَ خَضرةٌ حُلوة، فمن أخذَهُ بطِيب نفس بورِكَ له فيه، ومن أخذَه بإشراف نفسٍ لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع. واليدُ العليا خيرٌ من اليد السُفلى».

قوله (وقوله تعالى: زُيِّن للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنين الآية) وقوله «زين» قيل الحكمة في ترك الإفصاح بالذي زُيِّن أن يتناول اللفظ جميع من تصح نسبة التزين إليه، وإن كان العلم أحاط بأنه سبحانه وتعالى هو الفاعل بالحقيقة، فهو الذي أوجد الدنيا وما فيها وهيأها للانتفاع وجعل القلوب مائلة إليها، وإلى ذلك الإشارة بالتزيين ليدخل فيه حديث النفس ووسوسة الشيطان، ونسبة ذلك إلى الله تعالى باعتبار الخلق والتقدير والتهيئة، ونسبة ذلك للشيطان باعتبار ما أقدره الله عليه من التسلط على الآدمي بالوسوسة الناشىء عنها حديث النفس.

وقال ابن التين: بدأ في الآية بالنساء لأنهن أشد الأشياء فتنة للرجال، ومنه حديث «ماتركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء» قال: ومعنى تزيينها إعجاب الرجل بها وطواعيته لها.

قوله (وقال عمر: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه) وفي هذا الأثر إشارة إلى أن فاعل التزيين المذكور في الآية هو الله، وأن تزيين ذلك بمعنى تحسينه في قلوب بني آدم وأنهم جبلوا على ذلك، لكن منهم من استمر على ما طبع عليه من ذلك وانهمك فيه وهو المذموم، ومنهم من راعى فيه الأمر والنهي ووقف عند ما حُدَّ له من ذلك وذلك بمجاهدة نفسه بتوفيق الله تعالى له فهذا لم يتناوله الذم، ومنهم من ارتقى عن ذلك فزهد فيه بعد أن قدر عليه وأعرض عنه مع إقباله عليه وتمكنه منه، فهذا هو المقام المحمود.

١٢ ـ باب ما قدَّمَ من مالهِ فهو لهُ

٦٤٤٢ ـ قال عبدُ الله: قال النبيُّ ﷺ أيكم مالُ وارثهِ أحبُّ إليه من ماله؟ قالوا: يا رسولَ الله ﷺ، ما منّا أحد إلا مالهُ أحبُّ إليه، قال: فإن مالهُ ما قَدَّمَ، ومالُ وارثهِ ما أَخَّرَ».

قوله (أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله) أي أن الذي يخلفه الإنسان من المال وإن كان هو في الحال منسوباً إليه فإنه باعتبار انتقاله إلى وارثه يكون منسوباً للوارث، فنسبته للمالك في حياته حقيقية ونسبته للوارث في حياة المورث مجازية ومن بعد موته حقيقية.

قوله (فإن ماله ما قدَّم) أي هو الذي يضاف إليه في الحياة وبعد الموت بخلاف المال الذي يخلفه.

قال ابن بطال وغيره: فيه التحريض على تقديم ما يمكن تقديمه من المال في وجوه القربة والبر لينتفع به في الآخرة، فإن كل شيء يخلفه المورث يصير ملكاً للوارث فإن عمل فيه بطاعة الله اختص بثواب ذلك وكان ذلك الذي تعب في جمعه ومنعه، وإن عمل فيه بمعصية الله فذاك أبعد لمالكه الأول من الانتفاع به إن سلم من تبعته، ولا يعارضه قوله ﷺ لسعد «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة» لأن حديث سعد محمول على من تصدق بماله كله أو معظمه في مرضه، وحديث ابن مسعود في حق من يتصدق في صحته وشحه.

١٣ ـ باب المكثرونَ همُ المقلُّون. وقولُه تعالى:

{من كان يريدُ الحياةَ الدنيا وزينتَها نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخَسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرةِ إلا النار، وحَبطَ ما صَنعوا فيها، وباطلٌ ما كانوا يَعملون} /هود: ١٥، ١٦/

٦٤٤٣ ـ عن أبي ذرٍ رضيَ الله عنه قال: «خَرجتُ ليلةً من الليالي، فإذا رسولُ الله ﷺ يَمشي وَحدَهُ وليس معَهُ إنسان، قال فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد قال: فجعلتُ أمشي في ظِلِّ القمر، فالتفَتَ فرآني فقال: من هذا؟ قلتُ: أبو ذر جَعلَني اللهُ فِداءَك. قال: يا أبا ذر، تعال. قال: فمشَيْتُ معهُ ساعة، فقال لي: إن المكثرينَ همُ المقلونَ يومَ القيامة، إلا من أعطاهُ اللهُ خيراً فنفَح فيهِ يمينَهُ وشماله، وبين يدَيهِ ووراءَه، وعملَ فيه خيرا، قال فمشيتُ معَهُ ساعة فقال لي: اجلِسْ ها هنا، قال: فأجلَسَني في قاع حولَهُ حِجارة، فقال لي: اجلِس هاهنا حتى أرجعَ إليك. قال: فانطلَق في الحَرَّة حتى لا أراه، فلَبِثَ عني فأطالَ اللبث، ثمَّ إني سمعتُهُ وهو مُقبِلٌ وهو يقول: وإن سرق، وإن زنى. قال فلما جاء لم أصبر حتى قلت: يا نبيَّ الله، جَعلني اللهُ فِداءك، مَن تُكلمُ في جانبِ الحرة؟ ما سمعتُ أحداً يرجعُ إليكَ شيئاً. قال: ذلك جبريلُ عليه السلامُ عَرَضَ لي في جانب الحرة قال: بَشِّرْ أمتكَ أنهُ من ماتَ لا

يُشركُ باللهِ شيئاً دخلَ الجنة، قلت: يا جبريلُ، وإن سَرَق، وإن زنى؟ قال: نعم. قال: قلت: وإن سرقَ وإن زنى؟ قال: نعم، قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم».

قوله (المكثرون هم المقلون) المراد بالقلة في الحديث قلة الثواب، وكل من قل ثوابه فهو خاسر بالنسبة لمن كثر ثوابه.

قوله (وقوله(١) من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الآيتين) واختلف في الآية فقيل: هي على عمومها في الكفار وفيمن يرائي بعمله من المسلمين، وقد استشهد بها معاوية لصحة الحديث الذي حدث به أبو هريرة مرفوعاً في المجاهد والقارىء والمتصدق «لقوله تعالى لكل منهم: إنما عملت ليقال فقد قيل، فبكى معاوية لما سمع هذا الحديث ثم تلا هذه الآية» أخرجه الترمذي مطولاً وأصله عند مسلم، وقيل بل هي في حق الكفار خاصة بدليل الحصر في قوله في الآية التي تليها {أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار} والمؤمن في الجملة مآله إلى الجنة بالشفاعة أو مطلق العفو، والوعيد في الآية بالنار وإحباط العمل وبطلانه إنما هو للكافر.

وأجيب عن ذلك بأن الوعيد بالنسبة إلى ذلك العمل الذي وقع الرياء فيه فقط فيجازى فاعله بذلك إلا أن يعفو الله عنه، وليس المراد إحباط جميع أعماله الصالحة التي لم يقع فيها رياء، والحاصل أن من أراد بعمله ثواب الدنيا عجل له وجوزي في الآخرة بالعذاب لتجريده قصدخ، إلى الدنيا وإعراضه عن الآخرة.

وعموم قوله {نوف إليهم أعمالهم فيها} أي في الدنيا مخصوص بمن لم يقدر الله له ذلك لقوله تعالى {من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد} فعلى هذا التقييد يحمل ذلك المطلق، وكذا يقيد مطلق قوله {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب} وبهذا يندفع إشكال من قال قد يوجد بعض الكفار مقتراً عليه في الدنيا غير موسع عليه من المال أو من الصحة أو من طول العمر، بل قد يوجد من هو منحوس الحظ من جميع ذلك كمن قيل في حقه {خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين} ومناسبة ذكر الآية في الباب لحديثه أن في الحديث إشارة إلى أن الوعيد الذي فيها محمول على التأقيت في حق من وقع له ذلك من المسلمين لا على التأبيد لدلالة الحديث على أن مرتكب جنس الكبيرة من المسلمين يدخل الجنة، وليس فيه ما ينفي أنه قد يعذب قبل ذلك، كما أنه ليس في الآية ما ينفي أنه قد يدخل الجنة بعد التعذيب على معصية الرياء.

---

(١) رواية الباب واليونينية "وقوله تعالى من كان".

١٤ - باب قولِ النبيِّ ﷺ «ما يسرُّني أن عندي مِثلَ أُحُدٍ هذا ذهباً»

٦٤٤٤ - قال أبو ذر: «كنت أمشي مع النبيِّ ﷺ في حرِّ المدينة فاستقبَلَنا أُحُدٌ فقال: يا أبا ذَر، قلتُ: لبَّيك يا رسولَ الله، قال: ما يسُرُني أن عندي مِثلَ أحد هذا ذَهباً تمضي عليَّ ثالثةٌ وعندي منه دِينار، إلا شيئاً أرصُدُه لِدَين، إلا أن أقولَ به في عبادِ الله هكذا وهكذا وهكذا -عن يَمينهِ، وعن شِماله، ومن خلفهِ- ثم مشى ثم قال: إن الأكثرينَ همُ المقلونَ يوم القيامة، إلا من قال: هكذا وهكذا وهكذا -عن يمينه وعن شِمالهِ ومن خلفه- وقليلٌ ما هم. ثم قال لي: مَكانك، لا تبرَح حتى آتيك. ثم انطلقَ في سَوادِ الليل حتى توارى، فسمِعتُ صوتاً قد ارتَفع فتخوفتُ أن يكون أحدٌ عَرَض للنبيِّ ﷺ، فأردتُ أن آتيهُ، فتذكرتُ قولهُ لي: لا تَبرَح حتى آتيك، فلم أبرَح حتى أتاني، قلتُ: يا رسولَ الله، لقد سمعتُ صَوتاً تخوفت، فذكرتُ له، فقال: وهل سمِعتَه؟ قلت: نعم. قال: ذاكَ جبريل أتاني فقال: من ماتَ من أُمَّتِكَ لا يُشرِكُ بالله شيئاً دخلَ الجنة. قلت: وإن زنى وإن سَرَق؟ قال: وإن زنى وإن سَرَق».

٦٤٤٥ - قال أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: «قال رسولُ اللهُ ﷺ لو كان لي مثلُ أُحُدٍ ذَهباً ما يسرني أن لا تمُرَّ عليَّ ثلاث ليال وعندي منه شيء إلا شيئاً أرصُدُه لِدَين».

قوله (إلا شيئاً أرصده لدين) أي أعده أو أحفظه.

وهذا الإرصاد أعم من أن يكون لصاحب دين غائب حتى يحضر فيأخذه، أو لأجل وفاء دين مؤجل حتى يحل فيوفى.

قوله (إلا أن أقول به في عباد الله) فيؤخذ منه أن نفي محبة المال مقيدة بعدم الإنفاق فيلزم محبة وجوده مع الإنفاق، فما دام الإنفاق مستمرا لا يكره وجود المال، وإذا انتفى الإنفاق ثبتت كراهية وجود المال، ولا يلزم من ذلك كراهية حصول شيء آخر ولو كان قدْرَ أُحُد أو أكثر مع استمرار الإنفاق.

قوله (فتخوفت أن يكون أحد عرض للنبي ﷺ اي تعرض له بسوء.

قوله (دخل الجنة) هو جواب الشرط، رتب دخول الجنة على الموت بغير إشراك بالله، وقد ثبت الوعيد بدخول النار لمن عمل بعض الكبائر، وبعدم دخول الجنة لمن عملها فلذلك وقع الاستفهام.

وفي حديث الباب من الفوائد أدب أبي ذر مع النبي ﷺ وترقبه أحواله وشفقته عليه حتى لا يدخل عليه أدنى شيء مما يتأذى به.

وفيه حسن الأدب مع الأكابر وأن الصغير إذا رأى الكبير منفرداً لا يتسور عليه ولا

يجلس معه ولا يلازمه إلا بإذن منه، وهذا بخلاف ما إذا كان في مجمع كالمسجد والسوق فيكون جلوسه معه بحسب ما يليق به.

وفيه جواز تكنية المرء نفسه لغرض صحيح كأن يكون أشهر من اسمه، ولاسيما إن كان أسمه مشتركا بغيره وكنيته فردة.

وفيه جواز تفدية الصغير الكبير بنفسه وبغيرها، والجواب بمثل لبيك وسعديك زيادة في الأدب، وفيه الانفراد عند قضاء الحاجة، وفيه أن امتثال أمر الكبير والوقوف عنده أولى من ارتكاب ما يخالفه بالرأي.

وفيه استفهام التابع من متبوعه على ما يحصل له فائد دينية أو علمية أو غير ذلك.

قال النووي: مذهب أهل السنة بأجمعهم أن أهل الذنوب في المشيئة، وأن من مات موقناً بالشهادتين يدخل الجنة، فإن كان دينا أو سليماً من المعاصي دخل الجنة برحمة الله وحرم على النار وإن كان من المخلطين بتضييع الأوامر أو بعضها وارتكاب النواهي أو بعضها ومات عن غير توبة فهو في خطر المشيئة، وهو بصدد أن يمشي عليه الوعيد إلا أن يشاء الله أن يعفو عنه، فإن شاء أن يعذبه فمصيره إلى الجنة بالشفاعة، انتهى.

وعلى هذا فتقييد اللفظ الأول تقديره وإن زنى وإن سرق دخل الجنة، لكنه قبل ذلك إن مات مصراً على المعصية في مشيئة الله، وتقدير الثاني حرمه الله على النار إلا أن يشاء الله أو حرمه على نار الخلود والله أعلم.

قال الطيبي: قال بعض المحققين قد يتخذ من أمثال هذه الأحاديث المبطلة ذريعة إلى طرح التكاليف وإبطال العمل ظناً أن ترك الشرك كاف، وهذا يستلزم طي بساط الشريعة وإبطال الحدود، وأن الترغيب في الطاعة والتحذير عن المعصية لا تأثير له بل يقتضي الانخلاع عن الدين والانحلال عن قيد الشريعة والخروج عن الضبط والولوج في الخبط وترك الناس سدى مهملين وذلك يفضي إلى خراب الدنيا بعد أن يفضي إلى خراب الأخرى.

وفيه الحث على الإنفاق في وجوه الخير، وأن النبي ﷺ كان في أعلى درجات الزهد في الدنيا بحيث انه لا يحب أن يبقى بيده شيء من الدنيا إلا لإنفاقه فيمن يستحقه، وإما لإرصاده لمن له حق.

ومنه يؤخذ جواز تأخير الزكاة الواجبة عن الإعطاء إذا لم يوجد من يستحق أخذها، وينبغي لمن وقع له ذلك أن يعزل القدر الواجب من ماله ويجتهد في حصول من يأخذه، فإن لم يجد فلا حرج عليه ولا ينسب إلى تقصير في حبسه، وفيه تقديم وفاء الدين على صدقة التطوع، وفي الحديث أيضاً الحث على وفاء الديون وأداء الأمانات وجواز استعمال «لو»

عند تمني الخير وتخصيص الحديث الوارد عن استعمال «لو» على ما يكون في أمر غير محمود شرعاً.

وفيه الحض على إنفاق المال في الحياة وفي الصحة وترجيحه على إنفاقه عند الموت، وقد مضى فيه حديث «أن تصدق وأنت صحيح شحيح» وذلك أن كثيراً من الأغنياء يشح بإخراج ما عنده ما دام في عافية فيأمل البقاء ويخشى الفقر، فمن خالف شيطانه وقهر نفسه إيثاراً لثواب الآخرة فاز، ومن بخل بذلك لم يأمن الجور في الوصية، وإن سلم لم يأمن تأخير تنجيز ما أوصى به أو تركه أو غير ذلك من الآفات ولا سيما إن خلف وارثاً غير موفق فيبذره في أسرع وقت ويبقى وباله على الذي جمعه، والله المستعان.

١٥ ـ باب الغِنى غِنى النفس

وقال اللهُ تعالى {أيَحسبِونَ أنّما نُمِدُّهم به من مال وبَنين -إلى قولهِ تعالى- مِن دُونِ ذَلكَ هم لها عامِلون}/المؤمنون:٥٥ - ٦٣/.

قال ابن عيَينة: لم يَعمَلوها، لا بدَّ مِن أن يَعملوها.

٦٤٤٦ ـ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «ليسَ الغِنى عن كثرةِ العَرَض، ولكنَّ الغنى غِنى النفس».

قوله (الغنى غنى النفس) أي سواء كان المتصف بذلك قليل المال أو كثيره.

قوله (وقال الله تعالى: أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين -إلى قوله- هم لها عاملون) المعنى: أيظنون أن المال الذي نرزقهم إياه لكرامتهم علينا؟ إن ظنوا ذلك أخطئوا، بل هو استدراج كما قال تعالى {ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً}

وأما **قوله** {ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون} فالمراد به ما يستقبلون من الأعمال من كفر أو إيمان، وإلى ذلك أشار ابن عيينة في تفسيره بقوله: لم يعملوها لابد أن يعملوها، وقد سبقه إلى مثل ذلك أيضاً السدي وجماعة فقالوا: المعنى كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لتحق عليهم كلمة العذاب.

ثم مناسبة الآية للحديث أن خيرية المال ليست لذاته بل بحسب ما يتعلق به وإن كان يسمى خيراً في الجملة، وكذلك صاحب المال الكثير ليس غنياً لذاته بل بحسب تصرفه فيه، فإن كان في نفسه غنياً لم يتوقف في صرفه في الواجبات والمستحبات من وجوه البر والقربات وإن كان في نفسه فقيراً أمسكه وامتنع من بذله فيما أمر به خشية من نفاده، فهو في الحقيقة فقير صورة ومعنى وإن كان المال تحت يده، لكونه لا ينتفع به لا في الدنيا

ولا في الأخرى، بل ربما كان وبالا عليه.

قوله (عن كثرة العَرَض) أما عن فهي سببيه، وأما العرض فهو ما ينتفع به من متاع الدنيا.

قال ابن بطال: معنى الحديث ليس حقيقة الغنى كثرة المال لأن كثيراً ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو من استغنى بما أوتي وقنع به ورضي ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب، فكأنه غني.

وقال القرطبي: معنى الحديث إن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس، وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه فإنه يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله، ويكثر من يذمه من الناس ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير وأذل من كل ذليل.

والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعاً بما رزقه الله، لا يحرص على الازدياد لغير حاجة ولا يلح في الطلب ولا يلحف في السؤال، بل يرضى بما قسم الله له، فكأنه واجد أبدا، والمتصف بفقر النفس على الضد منه لكونه لا يقنع بما أعطي بل هو أبدا في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه، ثم إذا فاته المطلوب حزن وأسف، فكأنه فقير من المال لأنه لم يستغن بما أعطي، فكأنه ليس بغني.

ثم غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره علماً بأن الذي عند الله خير وأبقى، فهو مُعرض عن الحرص والطلب، وما أحسن قول القائل:

غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة   فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

وقال الطيبي: يمكن أن يراد بغنى النفس حصول الكمالات العلمية والعملية، وإلى ذلك أشار القائل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر فالذي فعل الفقر

أي ينبغي أن ينفق أوقاته في الغنى الحقيقي وهو تحصيل الكمالات، لا في جمع المال فإنه لا يزداد بذلك إلا فقرا انتهى.

وهذا وإن كان يمكن أن يراد لكن الذي تقدم أظهر في المراد، وإنما يحصل غنى النفس بغنى القلب بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره فيتحقق أنه المعطي المانع فيرضى بقضائه ويشكره على نعمائه ويفزع إليه في كشف ضرائه، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه تعالى، والغنى الوارد في قوله {ووجدك عائلاً فأغنى} يتنزل على غنى النفس،

فإن الآية مكية ولا يخفى ما كان فيه النبي ﷺ قبل أن تفتح عليه خيبر وغيرها من قلة المال «والله أعلم».

١٦ ـ باب فضلِ الفَقْر

٦٤٤٧ ـ عن سَهلِ بن سَعدٍ الساعديِّ أنه قال: «مرَّ رجُلٌ عَلَى رسول الله ﷺ فقال لرجلٍ عندهُ جالس: ما رأيكَ في هذا؟ فقال: رجلٌ من أشراف الناس، هذا والله حريٌّ إن خَطبَ أن يُنكحَ، وإن شَفَعَ أن يُشفَّعَ. قال: فسكت رسولُ الله ﷺ ثم مرَّ رجل، فقال له رسولُ اللهُ ﷺ ما رأيكَ في هذا؟ فقال: يا رسولَ الله، هذا رجلٌ من فُقراء المسلمين هذا حَرِيٌّ إن خَطبَ أن لا يُنكحَ، وإن شفع أن لا يشفَّع، وإن قال: أن لا يُسمَعَ لقوله. فقال رسول اللهُ ﷺ هذا خيرٌ من مِلء الأرض من مثلِ هذا».

٦٤٤٨ ـ عن أبي وائل قال: عُدنا خباباً فقال: «هاجَرنا معَ النبيِّ ﷺ نريدُ وَجهَ الله، فوقعَ أجرُنا على الله تعالى، فمنّا من مضى لم يأخُذ من أجرهِ شيئاً، منهم مُصعَب بن عُميرٍ قُتِلَ يومَ أحدٍ وتركَ نمِرَةً، فإذا غَطينا رأسَه بَدَتْ رِجلاه، وإذا غطينا رجلَيه بدا رأسه، فأمرَنا النبيُّ ﷺ أن نُغَطِّيَ رأسَه ونجعلَ على رِجلَيه منَ الإذخر. ومنا مَن أَينَعَت له ثمرَتُه فهو يَهدِبُها».

٦٤٤٩ ـ عن عِمرانَ بن حُصينٍ رضيَ الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «اطَّلَعتُ في الجنة فرأيت أكثرَ أهلِها الفقراءَ، واطَّلعتُ في النار فرأيت أكثر أهلِها النساء».

٦٤٥٠ ـ عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «لم يأكل النبيُّ ﷺ على خِوانٍ حتى مات، وما أكلَ خبزاً مرققاً حتى مات».

٦٤٥١ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لقد تُوُفّيَ النبيُّ ﷺ وما في رفِّي من شيءٍ يأكله ذو كبِد، إلا شَطرُ شعيرٍ في رَف لي، فأكلت منه حتى طال عليَّ، فكِلتُهُ ففني».

قوله (باب فضل الفقر) قيل أشار بهذه الترجمة عقب التي قبلها إلى تحقيق محل الخلاف في تفضيل الفقر على الغنى أو عكسه، لأن المستفاد من قوله «الغنى غنى النفس» الحصر في ذلك، فيحمل كل ما ورد في فضل الغنى على ذلك، فمن لم يكن غني النفس لم يكن ممدوحاً بل يكون مذموماً فكيف يفضل، وكذا ما ورد من فضل الفقر لأن من لم يكن غنيَّ النفس فهو فقير النفس، وهو الذي تعوذ النبي ﷺ منه.

والفقر الذي وقع فيه النزاع عدم المال والتقلل منه، وأما الفقر في قوله تعالى {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد} فالمراد به احتياج المخلوق إلى الخالق، فالفقر للمخلوقين أمر ذاتي لا ينفكون عنه، والله هو الغني ليس بمحتاج لأحد.

وقد تكلم ابن بطال هنا على مسألة التفضيل بين الغنى والفقر فقال: طال نزاع الناس في ذلك، فمنهم من فضل الفقر واحتج بأحاديث الباب وغيرها من الصحيح والواهي، واحتج من فضل الغنى بما تقدم قبل هذا بباب في قوله «إن المكثرين هم الأقلون إلا من قال بالمال هكذا» وحديث سعد الماضي في الوصايا «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة» وحديث كعب ابن مالك حيث استشار في الخروج من ماله كله فقال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» وحديث «ذهب أهل الدثور بالأجور» وفي آخره «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» وحديث عمرو بن العاص «نعم المال الصالح للرجل الصالح» أخرجه مسلم، وغير ذلك، قال: وأحسن ما رأيت في هذا قول أحمد بن نصر الداودي: الفقر والغنى محنتان من الله يختبر بهما عباده في الشكر والصبر كما قال تعالى: {إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا} وقال تعالى {ونبلوكم بالشر والخير فتنة}، وثبت أنه ﷺ «كان يستعيذ من شر فتنة الفقر ومن شر فتنة الغنى» ثم ذكر كلاماً طويلاً حاصله أن الفقير والغني متقابلان لما يعرض لكل منهما في فقره وغناه من العوارض فيمدح و يذم والفضل كله في الكفاف لقوله تعالى {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط} وقالُ ﷺ «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا» وسيأتي قريباً، وعليه يحمل قوله «أسألك غناي وغنى هؤلاء».

وأما الحديث الذي أخرجه الترمذي «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا» الحديث فهو ضعيف وعلى تقدير ثبوته فالمراد به أن لا يجاوز به الكفاف انتهى ملخصاً.

قلت: وهذا كله صحيح، لكن لا يدفع أصل السؤال عن أيهما أفضل: الغنى أو الفقر؟ لأن النزاع إنما ورد في حق من اتصف بأحد الوصفين أيهما في حقه أفضل؟ ولهذا قال الداودي في آخر كلامه المذكور أولاً: إن السؤال أيهما أفضل لا يستقيم، لاحتمال أن يكون لأحدهما من العمل الصالح ما ليس للآخر فيكون أفضل، وإنما يقع السؤال عنهما إذا استويا بحيث يكون لكل منهما من العمل ما يقاوم به عمل الآخر، قال: فعلِم أيهما أفضل عند الله انتهى، وكذا قال ابن تيمية، لكن قال: إذا استويا في التقوى فهما في الفضل سواء.

وقال ابن الجوزي: صورة الاختلاف في فقير ليس بحريص وغني ليس بممسك إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني البخيل، وأن الغني المنفق أفضل من الفقير الحريص، قال: وكل ما يراد لغيره ولا يراد لعينه ينبغي أن يضاف إلى مقصوده فبه يظهر فضله، فالمال ليس محذوراً لعينه بل لكونه قد يعوق عن الله وكذا العكس، فكم من غني لم يشغله غناه عن الله، وكم من فقير شغله فقره عن الله. إلى أن قال: وإن أخذت بالأكثر فالفقير عن الخطر

أبعد لأن فتنة الغنى أشد من فتنة الفقر، ومن العصمة أن لا تجد، انتهى.

وقال بعض المتأخرين فيما وجد بخط أبي عبد الله بن مرزوق: هل التقلل من المال أفضل ليتفرغ قلبه من الشواغل وينال لذة المناجاة ولا ينهمك في الاكتساب ليستريح من طول الحساب، أو التشاغل باكتساب المال أفضل ليستكثر به من التقرب بالبر والصلة والصدقة لما في ذلك من النفع المتعدي؟ قال: وإذا كان الأمر كذلك فالأفضل ما اختاره النبي ﷺ وجمهور أصحابه من التقلل في الدنيا والبعد عن زهراتها.

قلت: ودعوى أن جمهور الصحابة كانوا على التقلل والزهد ممنوعة بالمشهور من أحوالهم، فإنهم كانوا على قسمين بعد أن فتحت عليهم الفتوح، فمنهم من أبقى ما بيده مع التقرب إلى ربه بالبر والصلة والمواساة مع الاتصاف بغنى النفس، ومنهم من استمر على ما كان عليه قبل ذلك فكان لا يبقي شيئاً مما فتح عليه به وهم قليل بالنسبة للطائفة الأخرى، ومن تبحر في سير السلف علم صحة ذلك، فأخبارهم في ذلك لا تحصى كثرة، وحديث خباب في الباب شاهد لذلك. والأدلة الواردة في فضل كل من الطائفتين كثيرة: فمن الشق الأول بعض أحاديث الباب وغيرها، ومن الشق الثاني حديث سعد بن أبي وقاص رفعه «إن الله يحب الغني التقي الخفي» أخرجه مسلم، وهو دال لما قلته سواء حملنا الغنى فيه على المال أو على غنى النفس، والمراد بالتقيّ وهو بالمثناة من يترك المعاصي امتثالاً للمأمور به واجتناباً للمنهي عنه، والخفي ذكر للتتميم إشارة إلى ترك الرياء والله أعلم، ومن المواضع التي وقع فيها التردد من لا شيء له فالأولى في حقه أن يتكسب للصون عن ذل السؤال، أو يترك وينتظر ما يفتح عليه بغير مسألة، فصح عن أحمد مع ما اشتهر من زهده وورعه أنه قال لمن سأله عن ذلك: الزم السوق، وقال لآخر: استغن عن الناس، فلم أر مثل الغنى عنهم وقال: ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله وأن يعوِّدوا أنفسهم التكسب، ومن قال بترك التكسب فهو أحمق يريد تعطيل الدنيا، نقله عنه أبو بكر المروزي وقال: أجرة التعليم والتعلم أحب إلي من الجلوس لانتظار ما في أيدي الناس.

قوله (رجل من أشراف الناس) أي هذا رجل من أشراف الناس، أي جدير وحقيق وزنا ومعنى.

قوله (إن خطب أن يُنكح) أي تجاب خِطبته (وإن شفع أن يُشَفَّع) أي تقبل شفاعته.

قوله (نبتغي[١] وجه الله) أي جهة ما عنده من الثواب لا جهة الدنيا[٢].

قوله (أجرنا على الله) أي إثابتنا وجزاؤنا.

قوله (لم يأكل[٣] من أجره شيئاً) أي من عرَض الدنيا، وهذا مشكل على ما تقدم من

(١) رواية الباب واليونينية "نريد وجه الله"
(٢) الحق إثبات صفة الوجه لله تعالى من غير تأويل ولا تشبيه.
(٣) رواية الباب واليونينية "لم يأخذ"

تفسير ابتغاء وجه الله، ويجمع بأن اطلاق الأجر على المال في الدنيا بطريق المجاز بالنسبة لثواب الآخرة؛ وذلك أن القصد الأول هو ما تقدم لكن منهم من مات قبل الفتوح كمصعب بن عمير ومنهم من عاش إلى أن فتح عليهم، ثم انقسموا فمنهم من أعرض عنه وواسى به المحاويج أولاً فأولاً بحيث بقي على تلك الحالة الأولى وهم قليل: منهم أبو ذر، وهؤلاء ملتحقون بالقسم الأول، ومنهم من تبسط في بعض المباح فيما يتعلق بكثرة النساء والسراري أو الخدم والملابس ونحو ذلك ولم يستكثر وهم كثير: ومنهم ابن عمر، ومنهم من زاد فاستكثر بالتجارة وغيرها مع القيام بالحقوق الواجبة والمندوبة وهم كثير أيضاً: منهم عبد الرحمن بن عوف، وإلى هذين القسمين أشار خباب، فالقسم الأول وما التحق به توفر له أجره في الآخرة، والقسم الثاني مقتضى الخبر أنه يحسب عليهم ما وصل إليهم من مال الدنيا من ثوابهم في الآخرة، ويؤيده ما أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رفعه «ما من غازية تغزو فتغنم وتسلم إلا تعجلوا ثلثي أجرهم» الحديث، ومن ثم آثر كثير من السلف قلة المال وقنعوا به إما ليتوفر لهم ثوابهم في الآخرة وإما ليكون أقل لحسابهم عليه.

قوله (منهم مصعب بن عُمَير) بصيغة التصغير هو ابن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، يجتمع مع النبي ﷺ في قصي، وكان يكنى أبا عبد الله، من السابقين إلى الإسلام وإلى هجرة المدينة.

قال البراء: أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان القرآن أخرجه المصنف في أوائل الهجرة، وذكر ابن إسحق أن النبي ﷺ أرسله مع أهل العقبة الأولى يقرئهم ويعلمهم، وكان مصعب وهو بمكة في ثروة ونعمة فلما هاجر صار في قلة، فأخرج الترمذي من طريق محمد بن كعب حدثني من سمع علياً يقول «بينما نحن في المسجد إذ دخل علينا مصعب بن عمير وما عليه إلا بردة له مرقوعة بفروة، فبكى رسول الله ﷺ لما رآه للذي كان فيه من النعم والذي هو فيه اليوم».

قوله (قتل يوم أحد) أي شهيداً، وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ يومئذ.

قوله (وترك نمرة) هي إزار من صوف مخطط أو بردة.

قوله (أينعت) أي انتهت واستحقت القطف.

قوله (فهو يهدبها) أي يقطفها، قال ابن بطال: في الحديث ما كان عليه السلف من الصدق في وصف أحوالهم، وفيه أن الصبر على مكابدة الفقر وصعوبته من منازل الأبرار، وفيه أن الكفن يكون ساتراً لجميع البدن وأن الميت يصير كله عورة، ويحتمل أن يكون ذلك بطريق الكمال، وقد تقدم سائر ما يتعلق بذلك في كتاب الجنائز[١].

(١) كتاب الجنائز باب / ٢٧ ح ١٢٧٦ - ١ / ٦٤١

قلت: ظاهر الحديث التحريض على ترك التوسع من الدنيا كما أن فيه تحريض النساء على المحافظة على أمر الدين لئلا يدخلن النار كما تقدم تقرير ذلك في كتاب الإيمان في حديث «تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار، قيل: بم؟ قال: بكفرهن، قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن بالإحسان».

قوله (وما أكل خبزا مرققا حتى مات) قال ابن بطال: تركه عليه الصلاة والسلام الأكل على الخوان وأكل المرقق إنما هو لدفع طيبات الدنيا اختياراً لطيبات الحياة الدائمة، والمال إنما يرغب فيه ليستعان به على الآخرة فلم يحتج النبي ﷺ إلى المال من هذا الوجه.

قوله (إلا شطر شعير) يقال أرادت نصف وسق.

قوله (في رَفٍّ لي) قال الجوهري: الرَّفُّ شبه الطاق في الحائط.

قوله (فأكلت منه حتى طال عليَّ، فكِلْتُه) بكسر الكاف (فني) أي فرغ.

قال ابن بطال: فيه أن الطعام المكيل يكون فناؤه معلوماً للعلم بكيله، وأن الطعام غير المكيل فيه البركة لأنه غير معلوم مقداره. قلت: في تعميم كل الطعام بذلك نظر، والذي يظهر أنه كان من الخصوصية لعائشة ببركة النبي ﷺ.

قال القرطبي: سبب رفع النماء من ذلك عند العصر والكيل -والله أعلم- الالتفات بعين الحرص مع معاينة إدرار نعم الله ومواهب كراماته وكثرة بركاته، والغفلة عن الشكر عليها والثقة بالذي وهبها والميل إلى الأسباب المعتادة عند مشاهدة خرق العادة.

ويستفاد منه أن مَنْ رُزِق شيئاً أو أكرم بكرامة أو لطف به في أمرٍ ما فالمتعين عليه موالاة الشكر ورؤية المنة لله تعالى، ولا يُحدث في تلك الحالة تغييراً. والله أعلم.

١٧ ـ باب كيفَ كان عيشُ النبيِّ ﷺ وأصحابه، وتخلِّيهم عنِ الدُّنيا

٦٤٥٢ ـ عن مجاهد أنَّ أبا هريرةَ كان يقول: «آللهِ الذي لا إلهَ إلا هو، إن كنتُ لأعتمدُ بكبِدي على الأرضِ منَ الجوعِ، وإنْ كنتُ لأشُدُّ الحجَرَ على بطْني منَ الجوع. ولقد قعدْتُ يوماً على طريقِهم الذي يَخرجون منه، فمرَّ أبو بكْرٍ فسألتُه عن آيةٍ من كتاب الله، ما سألتهُ إلا ليُشبِعَني، فمرَّ ولم يفعَلْ. ثم مرَّ بي عمرُ فسألتُه عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمرَّ فلم يفعل، ثمَّ مرَّ بي أبو القاسم ﷺ فتبسَّمَ حينَ رآني وعرفَ ما في نفسي وما في وَجهي، ثم قال: يا أبا هِرٍّ، قلتُ: لبَّيكَ رسول الله، قال: الْحَق، ومَضى. فتَبِعتُه، فدخلَ، فأستَأذِنُ فأذِن لي، فدخَلَ فوجد لبَناً في قَدَح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداهُ لكَ فلان -أو فلانة- قال: أبا هِر، قلتُ لبَّيكَ يا رسولَ اللهَ، قال: الحَقْ إلى أهلِ الصُّفّة فادْعُهم لي. قال: وأهلُ الصفة أضيافُ الإِسلام، لا يأوُون على أهلٍ ولا مال ولا

على أحدٍ، إذا أتَتْهُ صدَقة بعثَ بها إليهم ولم يَتناوَل منها شيئاً، وإذا أتَتْه هديةٌ أرسلَ إليهم وأصابَ منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهلِ الصفة؟ كنتُ أحقُّ أن أصيبَ من هذا اللّبن شَربةً أتقوّى بها، فإذا جاءوا أمرني فكنتُ أنا أعطيهم، وما عسى أن يَبْلغَني من هذا اللبن، ولم يكنْ من طاعة الله وطاعة رسولهِ ﷺ بُد، فأتيتُهم فدعَوتهم، فأقبَلوا فاستَأذنوا فأذنَ لهم، وأخَذوا مجالِسَهم من البيت. قال: يا أبا هرّ، قلت: لبيك يا رسولَ الله، قال خذ فأعطهم، فأخَذتُ القدح فجعلتُ أعطيه الرجلَ فيَشرَبُ حتى يَروَى، ثم يَرد عليَّ القدَح فأعطيهِ الرجلَ فيشرَبُ حتى يَروَى، ثم يَرُد عليَّ القدَح، فأعطيه الرجل فيشرَبُ حتى يَروَى، ثم يرُد عليَّ القدح، حتى انتهيتُ إلي النبيِّ ﷺ وقد رَوِيَ القومُ كلهم، فأخذ القدَحَ فوَضَعهُ على يدهِ، فنظرَ إليَّ فتبسمَ فقال أبا هرٍ، قلت: لبيك يا رسولَ الله. قال: بَقيتُ أنا وأنت. قلتُ: صدَقتَ يا رسول الله، قال: اقعد فاشرَب، فقعدتُ فشربت، فقال: اشرَب، فشربت، فما زال يقول: اشرب، حتى قلتُ: لا والذي بَعثك بالحق، ما أجد له مَسلكاً. قال: فأرني، فأعطيتهُ القدَح، فحمد الله وسمَّى وشربَ الفَضْلة».

٦٤٥٣ ـ عن سعدٍ قال: «إني لأوَّل العَرَب رمى بسَهم في سبيل الله، ورأيتنا نَغزُو ومالنا طعامٌ إلا ورقُ الحُبلةِ وهذا السَّمُرُ، وإن أحدَنا لَيَضعُ كما تَضعُ الشاة ماله خِلط، ثم أصبحت بنو أسدٍ تُعزِّرني على الإسلام، خِبتُ إذاً وضلَّ سعْيي».

٦٤٥٤ ـ عن عائشة قالت: «ما شَبعَ آل محمد ﷺ منذ قدمَ المدينة مِن طعام بُرٍ ثلاث ليال تِباعاً حتى قُبِض».

٦٤٥٥ـ عن عائشة رضيَ الله عنها قالت: «ما أكلَ آل محمدٍ ﷺ أكلتَينِ في يوم إلا إحداهما تمر».

٦٤٥٦- عن عائشةَ قالت: «كان فراشُ رسولِ الله ﷺ من أدَم وحشوه ليف».

٦٤٥٧ ـ عن قَتادة قال: كنا نأتي أنسَ بن مالك وخبّازُه قائم وقال: «كلوا، فما أعلمُ النبيَّ ﷺ رأى رَغيفاً مُرقّقاً حتّى لحقَ بالله، ولا رأى شاةً سَميطاً بعينَه قطُّ».

٦٤٥٨ ـ عن عائشةَ رضيَ الله عنها قالت: «كان يأتي علينا الشهرُ ما نوقِد فيه ناراً، إنما هو التمرُ والماء، إلا أن نُؤتى باللُّحَيم».

٦٤٥٩ ـ عن عائشة أنها قالت لعروةَ: «ابنَ أختي، إن كنّا لَننظرُ إلى الهلالِ ثلاثةَ أهلةٍ في شهرَين وما أُوقِدَتْ في أبياتِ رسولِ الله ﷺ نارٌ. فقلتُ: ما كان يُعيشُكم؟ قالت: الأسودان التمرُ والماء، إلا أنه قد كان لرسولِ ﷺ جيرانٌ منَ الأنصار كان لهم مَنائحُ،

وكانوا يَمنحونَ رسولَ الله ﷺ من أبياتهم، فيَسقيناه».

٦٤٦٠ - عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: قال رسولُ اللهُ ﷺ اللهمّ ارزُق آلَ محمد قُوتاً».

قوله (باب) بالتنوين (كيف كان عيش النبيِّ ﷺ وأصحابه؟) أي في حياته (وتخليهم عن الدنيا) أي عن ملاذها والتبسط فيها.

قوله (إن كُنتُ) وقوله «لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع» أي ألصق بطني بالأرض، وكأنه كان يستفيد بذلك ما يستفيده من شد الحجر على بطنه، أو هو كناية عن سقوطه إلى الأرض مغشياً عليه كما وقع في رواية أبي حازم في أول الأطعمة «فلقيت عمر بن الخطاب فاستقراته آية» فذكره، قال: «فمشيت غير بعيد فخررت على وجهي من الجهد والجوع، فإذا رسول الله ﷺ على رأسي» الحديث.

قوله (وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع) عند أحمد في طريق عبد الله بن شقيق «أقمت مع أبي هريرة سنة فقال: لو رأيتنا وإنه ليأتي على أحدنا الأيام ما يجد طعاماً يقيم به صلبه، حتى إن كان أحدنا ليأخذ الحجر فيشد به على أخمص بطنه ثم يشده بثوبه ليقيم به صلبه» قال العلماء: فائدة شد الحجر المساعدة على الاعتدال والانتصاب.

قوله (فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم، فأخذوا[١] مجالسهم من البيت) أي فقعد كل منهم في المجلس الذي يليق به، ولم أقف على عددهم إذ ذاك، وقد تقدم في أبواب المساجد في أوائل كتاب الصلاة من طريق أبي حازم عن أبي هريرة «رأيت سبعين من أصحاب الصفة» الحديث وفيه إشعار بأنهم كانوا أكثر من ذلك.

قوله (فحمد الله وسمى) أي حمد الله على ما منّ به من البركة التي وقعت في اللبن المذكور مع قلّته حتى روي القوم كلهم وأفضلوا، وسمّى في ابتداء الشرب.

قوله (وشرب الفضلة) أي البقية، وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم: استحباب الشرب من قعود، وأن خادم القوم إذا دار عليهم بما يشربون يناول الإناء من كل واحد فيدفعه هو إلى الذي يليه ولا يدع الرجل يناول رفيقه لما في ذلك من نوع امتهان الضيف. وفيه معجزة عظيمة، وفيه جواز الشبع ولو بلغ أقصى غايته أخذا من قول أبي هريرة «لا أجد له مسلكاً» وتقرير النبيِّ ﷺ على ذلك خلافاً لمن قال بتحريمه، وفيه أن كتمان الحاجة والتلويح بها أولى من إظهارها والتصريح بها، وفيه كرم النبيِّ ﷺ وإيثاره على نفسه وأهله وخادمه، وفيه ما كان بعض الصحابة عليه في زمن النبي ﷺ من ضيق الحال، وفضل أبي هريرة وتعففه عن التصريح بالسؤال واكتفاؤه بالإشارة إلى ذلك، وتقديمه طاعة النبي

---

(١) رواية الباب واليونينية "وأخذوا".

ﷺ على حظ نفسه مع شدة احتياجه، وفضل أهل الصفة، وفيه استئذان الخادم على مخدومه إذا دخل منزله، وسؤال الرجل عما يجده في منزله مما لا عهد له به ليترتب على ذلك مقتضاه، وقبول النبي ﷺ الهدية وتناوله منها وإيثاره ببعضها الفقراء، وامتناعه من تناول الصدقة ووضعه لها فيمن يستحقها، وشرب الساقي آخراً وشرب صاحب المنزل بعده، والحمد على النعم، والتسمية عند الشرب.

قوله (وهذا السمر) وقال أبو عبيد وغيره: هما نوعان من شجر البادية، وقيل الحبلةُ ثمرُ العِضاة، شجر الشوك كالطلح والعوسج، قال النووي: وهذا جيد على رواية البخاري لعطفه الورق على الحبلة، قلت: هي رواية أخرى عند البخاري بلفظ «إلا الحبلة وورق السمر».

قوله (ليضع) كناية عن الذي يخرج منه في حال التغوط.

قوله (ما له خلط) أي يصير بعراً لا يختلط من شدة اليبس الناشيء عن قشف العيش.

قوله (تعزرني) أي توقفني، والتعزير التوقيف على الأحكام. وقال الطبري: معناه تقومني وتعلمني، والمعنى أن سعداً أنكر أهلية بني أسد لتعليمه الأحكام مع سابقته وقدم صحبته.

قوله (خبت إذاً وضل سعيي) قال ابن الجوزي: إن قيل كيف ساغ لسعد أن يمدح نفسه ومن شأن المؤمن ترك ذلك لثبوت النهي عنه، فالجواب أن ذلك ساغ له لما عيره الجهال بأنه لا يحسن الصلاة فاضطر إلى ذكر فضله، والمدحة إذا خلت عن البغي والاستطالة وكان مقصود قائلها إظهار الحق وشكر نعمة الله لم يكره، كما لو قال القائل: إني لحافظ لكتاب الله عالم بتفسيره و بالفقه في الدين، قاصداً إظهار الشكر أو تعريف ما عنده ليستفاد ولو لم يقل ذلك لم يعلم حاله، ولهذا قال يوسف عليه السلام {إني حفيظ عليم} وقال علي: سلوني عن كتاب الله. وقال ابن مسعود: لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني لأتيته، وساق في ذلك أخباراً وآثارا عن الصحابة والتابعين تؤيد ذلك.

قوله (اللّهم ارزق آل محمد قوتا) قال القرطبي: معنى الحديث أنه طلب الكفاف، فإن القوت ما يقوت البدن ويكف عن الحاجة، وفي هذه الحالة سلامة من آفات الغنى والفقر جميعاً، والله أعلم.

١٨ ـ باب القَصدِ والمداومةِ على العمل

٦٤٦١ ـ عن مسروقٍ قال سألت عائشة رضيَ الله عنها أي العمل كان أحبَّ إلى النبيِّ ﷺ؟ قالت: «الدائم. قال: قلتُ في أيِّ حين كان يقوم؟ قالت: كان يقوم إذا سمعَ الصَّارخ».

٦٤٦٢ ـ عن عائشةَ أنها قالت: «كان أحبُّ العمل إلى رسولِ الله ﷺ الذي يَدوم عليه صاحبه».

٦٤٦٣ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: «قال رسولُ اللهِّ ﷺ لن يُنجيَ أحداً منكم عملُه. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يَتغمدني الله برحمة، سدِّدوا

وقاربوا، واغدُوا وروحوا، وشيءٌ منَ الدُّلجة، والقَصدَ القصد تَبلغوا».

٦٤٦٤ - عن عائشةَ أن رسولَ الله ﷺ قال: «سَدِّدوا وقاربوا، واعلموا أن لن يُدخِلَ أحدَكم عملُه الجنَّة، وأنَّ أحب الأعمال أدوَمُها إلى اللهِ وإن قَلَّ».

[الحديث ٦٤٦٤ - طرفه في: ٦٤٦٧]

٦٤٦٥ - عن عائشةَ رضيَ الله عنها أنها قالت: «سُئلَ النبيُّ ﷺ: أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى الله؟ قال: أدوَمُها وإن قلّ. وقال: اكلَفوا منَ الأعمال ما تُطيقون».

٦٤٦٦ - عن علقمةَ قال: «سألتُ أمَّ المؤمنين عائشة قلتُ: يا أمَّ المؤمنين، كيفَ كان عملُ النبيِّ ﷺ، هل كان يَخصُّ شيئاً من الأيام؟ قالت: لا، كان عملُه دِيمة، وأيُّكم يَستطيع ما كان النبيُّ ﷺ يَستطيع؟».

٦٤٦٧ - عن عائشة عنِ النبيِّ ﷺ قال: «سَدِّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه، لا يُدخِلُ أحداً الجنةَ عملُه، قالوا: ولا أنتَ يارسولَ الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدَني الله بمغفِرةٍ ورحمة».

٦٤٦٨ - عن أنس بن مالكٍ رضيَ الله عنه قال: إن رسولَ الله ﷺ صلى لنا يوماً الصلاةَ، ثم رَقيَ المنبرَ فأشار بيدهِ قِبَلَ قبلةِ المسجد فقال: قد أُرِيت الآن -مُنذ صلَّيتُ لكمُ الصلاةَ- الجَنَّةَ والنارَ ممثلتَين في قُبُلِ هذا الجِدار فلم أرَ كاليوم في الخير والشر، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر».

قوله (باب القصد) هو سلوك الطريق المعتدلة، أي استحباب ذلك؛ وسيأتي أنهم فسروا السداد بالقصد وبه تظهر المناسبة.

قوله (والمداومة على العمل) أي الصالح.

ذكر فيه ثمانية أحاديث، ومحصل ما اشتملت عليه الحث على مداومة العمل الصالح وإن قل وأن الجنةَ لا يدخلها أحدٌ بعمله بل برحمة الله، وقصة رؤية النبي ﷺ الجنة والنار في صلاته، والأول هو المقصود بالترجمة والثاني ذكر استطراداً وله تعلق بالترجمة أيضاً.

قال ابن بطال: في الجمع بين هذا الحديث وقوله تعالى: {وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون} ما محصله أن تحمل الآية على أن الجنة تنال المنازل فيها بالأعمال، فإن درجات الجنة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال، وأن يحمل الحديث على دخول الجنة والخلود فيها.

ثم أورد على هذا الجواب قوله تعالى: {سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون} فصرح بأن دخول الجنة أيضاً بالأعمال، وأجاب بأنه لفظ مجمل بينه الحديث، والتقدير ادخلوا منازل الجنة وقصورها بما كنتم تعملون، وليس المراد بذلك أصل الدخول.

ثم قال: ويجوز أن يكون الحديث مفسراً للآية، والتقدير ادخلوها بما كنتم تعملون مع رحمة الله لكم وتفضله عليكم، لأن اقتسام منازل الجنة برحمته، وكذا أصل دخول الجنة هو برحمته حيث ألهم العاملين ما نالوا به ذلك، ولا يخلوا شيء من مجازاته لعباده من رحمته وفضله،

وقد تفضل عليهم ابتداء بإيجادهم ثم برزقهم ثم بتعليمهم.

وقال ابن الجوزي: يتحصل عن ذلك أربعة أجوبة: الأول أن التوفيق للعمل من رحمة الله، ولولا رحمة الله السابقة ما حصل الإيمان ولا الطاعة التي يحصل بها النجاة.

الثاني أن منافع العبد لسيده فعمله مستحق لمولاه، فمهما أنعم عليه من الجزاء فهو من فضله.

الثالث جاء في بعض الأحاديث أن نفس دخول الجنة برحمة الله، واقتسام الدرجات بالأعمال.

الرابع أن أعمال الطاعات كانت في زمن يسير والثواب لا ينفد فالإنعام الذي لا ينفد في جزاء ما ينفد بالفضل لا بمقابلة الأعمال.

قوله (برحمة) قال الرافعي: في الحديث أن العامل لا ينبغي أن يتكل على عمله في طلب النجاة ونيل الدرجات لأنه إنما عمل بتوفيق الله، وإنما ترك المعصية بعصمة الله، فكل ذلك بفضله ورحمته.

قوله (سدِّدوا) ومعناه اقصدوا السداد أي الصواب، ومعنى هذا الاستدراك أنه قد يفهم من النفي المذكور نفي فائدة العمل، فكأنه قيل بل له فائدة وهو أن العمل علامة على وجود الرحمة التي تدخل العامل الجنةً فاعملوا واقصدوا بعملكم الصواب أي اتباع السنة من الإخلاص وغيره ليقبل عملكم فينزل عليكم الرحمة.

قوله (وقاربوا) أي لا تفرطوا فتجهدوا أنفكسم في العبادة لئلا يفضي بكم ذلك إلى الملال فتتركوا العمل فتفرطوا.

وله شاهد في الزهد لابن المبارك من حديث عبد الله بن عمرو موقوف «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله فإن المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى» والمنبت: أي الذي عطب مركوبه من شدة السير، مأخوذ من البتّ وهو القطع أي صار منقطعاً لم يصل إلى مقصوده وفقد مركوبه الذي كان يوصله لو رفق به.

قوله (واغدوا وروحوا وشيئاً من الدلجة) والمراد بالغدو السير من أول النهار، وبالرواح السير من أول النصف الثاني من النهار، والدلجة: سير الليل يقال سار دلجة من الليل أي ساعة فلذلك قال شيئاً من الدلجة لعسر سير جميع الليل، فكأن فيه إشارة إلى صيام جميع النهار وقيام بعض الليل وإلى أعم من ذلك من سائر أوجه العبادة، وفيه إشارة إلى أن الحث على الرفق في العبادة وهو الموافق للترجمة، وعبر بما يدل على السير لأن العابد كالسائر إلى محل إقامته وهو الجنة.

قوله (والقصد القصد) أي الزموا الطريق الوسط المعتدل.

قوله (اكلفوا) المراد به الإبلاغ بالشيء إلى غايته، يقال كلفت بالشيء إذا أولعت به.

والمراد بالعمل هنا الصلاة والصيام وغيرهما من العبادات.

قوله (ما تطيقون) أي قدر طاقتكم. والحاصل أنه أمر بالجد في العبادة والإبلاغ بها إلى حد النهاية لكن بقيد ما لا تقع معه المشقة المفضية إلى السآمة والملال.

قوله (هل كان يخص شيئاً من الأيام) أي بعبادة مخصوصة لا يفعل مثلها في غيره (قالت لا)، وقد استشكل ذلك بما ثبت عنها أن أكثر صيامه كان في شعبان كما تقدم تقريره في كتاب الصيام، وبأنه كان يصوم أيام البيض كما ثبت في السنن وتقدم بيانه أيضاً، وأجيب بأن مرادها تخصيص عبادة معينة في وقت خاص، وإكثاره الصيام في شعبان إنما كان لأنه كان يعتريه الوعك كثيراً وكان يكثر السفر في الغزو فيفطر بعض الأيام التي كان يريد أن يصومها فيتفق أن لا يتمكن من قضاء ذلك إلا في شعبان فيصير صيامه في شعبان بحسب الصورة أكثر من صيامه في غيره، وأما أيام البيض فلم يكن يواظب على صيامها في أيام بعينها، بل كان ربما صام من أول الشهر وربما صام من وسطه وربما صام من آخره، ولهذا قال أنس: «ما كنت تشاء أن تراه صائما من النهار إلا رأيته ولا قائما من الليل إلا رأيته». وقد تقدم هذا كله بأبسط من هذا في كتاب الصيام أيضاً.

قوله (كان عمله ديمة) أي دائما.

١٩ ـ باب الرجاءِ مع الخوف

وقال سفيانُ: ما في القرآن آيةٌ أشدُّ عليَّ من {لستُم على شيء حتى تقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزلَ إليكم من ربِّكم} /المائدة:٦٨/.

٦٤٦٩ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إن الله خلقَ الرحمةَ يومَ خلقَها مائةَ رحمة، فأمسكَ عندَهُ تسعاً وتسعينَ رحمة. وأرسلَ في خلقهِ كلِّهم رحمةً واحدة؛ فلو يَعلمُ الكافرُ بكل الذي عندَ الله من الرحمة لم يَيأسْ من الجنة، ولو يَعلم المسلمُ بكلِّ الذي عندَ الله من العذاب لم يأمَن مِنَ النار».

قوله (باب الرجاء مع الخوف) أي استحباب ذلك، لا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف ولا في الخوف عن الرجاء لئلا يفضي في الأول إلى المكر وفي الثاني إلى القنوط وكل منهما مذموم، والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجياً عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور، وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: من علامة السعادة أن تطيع، وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصي، وترجو أن تنجو، وقد أخرج ابن ماجه من طريق عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن أبيه «عن عائشة قلت: يارسول الله

(١) كتاب الصوم باب / ٦٤ ح ١٩٨٧ - ٢ / ١٩٦

الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الذي يسرق ويزني؟ قال: لا، ولكنه الذي يصوم ويتصدق ويصلي ويخاف أن لا يقبله منه» وهذا كله متفق على استحبابه في حالة الصحة، وقيل الأولى أن يكون الخوف في الصحة أكثر وفي المرض عكسه، وأما عند الإشراف على الموت فاستحب قوم الاقتصار على الرجاء لما يتضمن من الافتقار إلى الله تعالى، ولأن المحذور من ترك الخوف قد تعذر فيتعين حسن الظن بالله برجاء عفوه ومغفرته، ويؤيده حديث «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظنَّ بالله» وسيأتي الكلام عليه في كتاب التوحيد.

وقال آخرون: لا يهمل جانب الخوف أصلاً بحيث يجزم بأنه آمن، ويؤيده ما أخرج الترمذي عن أنس «أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له: كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف» ولعل البخاري أشار إليه في الترجمة.

قوله (وقال سفيان) هو ابن عيينة (مافي القرآن آية أشد عليَّ من قوله تعالى: {قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم}) وقد تقدم الكلام على هذا الأثر وبيانه والبحث فيه في تفسير المائدة.

قوله (لم ييأس من الجنة) قيل المراد أن الكافر لو علم سعة الرحمة لغطى على ما يعلمه من عظم العذاب فيحصل له الرجاء، أو المراد أن متعلق علمه بسعة الرحمة مع عدم التفاته إلى مقابلها يطمعه في الرحمة، ومطابقة الحديث للترجمة أنّه اشتمل على الوعد والوعيد المقتضيين الرجاء والخوف، فمن علم أن من صفات الله تعالى الرحمة لمن أراد أن يرحمه والانتقام ممن أراد أن ينتقم منه لا يأمن انتقامه من يرجو رحمته ولا ييأس من رحمته من يخاف انتقامه، وذلك باعث على مجانبة السيئة ولو كانت صغيرة وملازمة الطاعة ولو كانت قليلة، وقد تكلم الكرماني هنا على «لو» بما حاصله: إنها هنا لانتفاء الثاني وهو الرجاء لانتفاء الأول وهو العلم، فأشبهت لو جئتني أكرمتك.

قال: والمقصود من الحديث أن المكلّف ينبغي له أن يكون بين الخوف والرجاء حتى لا يكون مفرطاً في الرجاء بحيث يصير من المرجئة القائلين لا يضر مع الإيمان شيء، ولا في الخوف بحيث لا يكون من الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد صاحب الكبيرة إذا مات عن غير توبة في النار، بل يكون وسطاً بينهما كما قال الله تعالى: {يرجون رحمته ويخافون عذابه} ومن تتبع دين الإسلام وجد قواعده أصولاً وفروعاً كلها في جانب الوسط، والله أعلم.

٢٠ ـ باب الصبرِ عن مَحارمِ الله

{إنما يوفى الصابرونَ أجرَهم بغير حساب}/الزمر:١٠/.

وقال عمرُ: وَجدنا خيرَ عَيشنا بالصبر

٦٤٧٠ ـ عن أبي سعيدٍ أنَّ ناساً من الأنصار سألوا رسولَ الله ﷺ، فلم يسألهُ أحدٌ منهم إلا أعطاه، حتى نَفِد ما عنده، فقال لهم حينَ نفِد كل شيء أنفقَ بيديه: ما يكونُ عندي من خير لا أدَّخرُه عنكم؛ وإنه مَن يَستعفّ يُعفَّه الله، ومن يتصبَّر يُصبرهُ الله، ومن يستَغنِ يُغنه الله، ولن تُعطوا عطاءً خيراً وأوسعَ مَن الصبر».

٦٤٧١ ـ عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبيُّ ﷺ يُصلّي حتى تَرِم -أو تنتفخَ- قدَماه، فيقالُ له، فيقول: أفلا أكونُ عبداً شكورا؟».

قوله (باب الصبر عن محارم الله) يدخل في هذا المواظبة على فعل الواجبات والكف عن المحرمات، وذلك ينشأ عن علم العبد بقبحها أنَّ الله حرمها صيانة لعبده عن الرذائل، فيحمل ذلك العاقل على تركها ولو لم يرد على فعلها وعيد، ومنها الحياء منه والخوف منه أن يوقع وعيده فيتركها لسوء عاقبتها وأن العبد منه بمرأى ومسمع فيبعثه ذلك على الكف عما نهى عنه، ومنها مراعاة النعم فإن المعصية غالباً تكون سبباً لزوال النعمة، ومنها محبة الله فإن المحب يُصبِّر نفسه على مراد من يحب، وأحسن ما وصف به الصبر أنه حبس النفس عن المكروه وعقد اللسان عن الشكوى والمكابدة في تحمله وانتظار الفرج، وقد أثنى الله على الصابرين في عدة آيات، وتقدم في أوائل كتاب الإيمان حديث «الصبر نصف الإيمان» معلقاً.

قال الراغب: الصبر الإمساك في ضيق، صبرت الشيء حبسته، فالصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل أو الشرع.

وتختلف معانيه بتعلقاته: فإن كان عن مصيبة سمى صبراً فقط، وإن كان في لقاء عدو سمي شجاعة، وإن كان عن كلام سمي كتمانا، وإن كان عن تعاطي ما نهي عنه سمي عفة. قلت: وهو المقصود هنا.

قوله (وقال عمر: وجدنا خير عيشنا بالصبر) والصبر إن عُدِّيَ بعن كان في المعاصي، وإن عُدِّي بعلى كان في الطاعات.

قوله (ما يكون عندي من خير) أي مال.

وفي الحديث الحض على الاستغناء عن الناس، والتعفف عن سؤالهم بالصبر والتوكل على الله وانتظار ما يرزقه الله، وأن الصبر أفضل ما يعطاه المرء، لكون الجزاء عليه غير مقدر ولا محدود.

وقال القرطبي: معنى قوله «من يستعف» أي يمتنع عن السؤال، وقوله «يعفه الله» أي

إنه يجازيه على استعفافه بصيانة وجهه ودفع فاقته، وقوله «ومن يستغن» أي بالله عمن سواه، وقوله «يغنه» أي فإنه يعطيه ما يستغني به عن السؤال ويخلق في قلبه الغنى، فإن الغنى غنى النفس كما تقدم تقريره.

وقوله «ومن يتصبر» أي يعالج نفسه على ترك السؤال ويصبر إلى أن يحصل له الرزق، وقوله «يصبره الله» أي فإنه يقويه ويمكنه من نفسه حتى تنقاد له ويذعن لتحمل الشدة، فعند ذلك يكون الله معه فيظفره بمطلوبه.

وقال ابن الجوزي: لما كان التعفف يقتضي ستر الحال عن الخلق وإظهار الغنى عنهم فيكون صاحبه معاملاً لله في الباطن فيقع له الربح على قدر الصدق في ذلك، وإنما جعل الصبر خير العطاء لأن حبس النفس عن فعل ما تحبه وإلزامها بفعل ما تكره في العاجل مما لو فعله أو تركه لتأذى به في الآجل.

وقال ابن التين: معنى قوله «يعفه الله» إما أن يرزقه من المال ما يستغني به عن السؤال، وإما أن يرزقه القناعة والله أعلم.

قوله (أفلا أكون عبداً شكورا) تقدم شرحه مع شرح بقية الحديث مستوفى في أوائل أبواب التهجد(١)، ووجه مناسبته للترجمة أن الشكر واجب وترك الواجب حرام، وفي شغل النفس بفعل الواجب صبر عن فعل الحرام، والحاصل أن الشكر يتضمن الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، قال بعض الأئمة: الصبر يستلزم الشكر لا يتم إلا به، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فمن كان في نعمة ففرضه الشكر والصبر، أما الشكر فواضح وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية ففرضه الصبر والشكر، أما الصبر فواضح و أما الشكر فالقيام بحق الله عليه في تلك البلية، فإن لله على العبد عبودية في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء، ثم الصبر على ثلاثة أقسام: صبر عن المعصية فلا يرتكبها، وصبر على الطاعة حتى يؤديها، وصبر على البلية فلا يشكو ربه فيها، والمرء لا بد له من واحدة من هذه الثلاث فالصبر لازم له أبداً لا خروج له عنه، والصبر سبب في حصول كل كمال، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله في الحديث الأول «إن الصبر خير ما أعطيه العبد»، وقال بعضهم: الصبر تارة يكون لله، وتارة يكون بالله، فالأول الصابر لأمر الله طلباً لمرضاته فيصبر على الطاعة ويصبر عن المعصية، والثاني المفوض لله بأن يبرأ من الحول والقوة ويضيف ذلك إلى ربه، وزاد بعضهم الصبر على الله، وهو الرضا بالمقدور، فالصبر لله يتعلق بإلهيته ومحبته، والصبر به يتعلق بمشيئته وإرادته، والثالث يرجع إلى القسمين الأولين عند التحقيق، فإنه لا يخرج عن الصبر على أحكامه الدينية وهي أوامره ونواهيه، والصبر على ابتلائه وهو أحكام

(١) كتاب التهجد باب / ٦ ح ١١٣٠ - ١ / ٥٧٧

الكونية والله أعلم

٢١ ـ باب {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}

/الطلاق:٣/ وقال الرَّبيعُ بن خُثَيم: من كلِّ ما ضاق على الناس

٦٤٧٢ ـ عنِ ابنِ عباس أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: يَدخُلُ الجنة من أمَّتي سبعون ألفاً بغير حساب: همُ الذين لا يَستَرقون، ولا يَتطيَّرون، وعلى ربِّهم يَتوكلون».

قوله (باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) والمراد بالتوكل اعتقاد ما دلت عليه هذه الآية {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها} وليس المراد به ترك التسبب والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين، لأن ذلك قد يجر إلى ضد ما يراه من التوكل.

وقد سئل أحمد عن رجل جلس في بيته أو في المسجد وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي، فقال: هذا رجل جهل العلم، فقد قال النبي ﷺ: «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي» وقال: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق قال: وكان الصحابة يتجرون ويعملون في نخيلهم، والقدوة بهم. انتهى.

٢٢ ـ باب مايُكرَهُ من قِيلَ وقال

٦٤٧٣ ـ عن المغيرة بن شعبة أن معاوية كتب إلى المغيرة أنِ اكتُبْ إليَّ بحديثٍ سمعتَهُ من رسول الله ﷺ، قال فكتب إليه المغيرةُ: «إني سمعتهُ يقولُ عندَ انصرافه من الصلاة: لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، لهُ الملكُ وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير. قال: وكان ينهى عن قِيلَ وقال: وكثرةِ السؤال، وإضاعة المال، ومنعِ وهاتِ، وعقوقِ الأمهات، ووأْدِ البنات».

قوله (باب ما يكره من قيل وقال) والمراد أنه نهى عن الإكثار بما لا فائدة فيه من الكلام، وقد ذهب بعضهم إلى أن المراد حكاية أقاويل الناس والبحث عنها كما يقال: قال فلان كذا وقيل عنه كذا مما يكره حكايته عنه، وقيل هو أن يذكر للحادثة عن العلماء أقوالاً كثيرة ثم يعمل بأحدها بغير مرجح أو يطلقها من غير تثبت ولا احتياط لبيان الراجح، والنهي عن كثرة السؤال يتناول الإلحاف في الطلب والسؤال عما لا يعني السائل.

وقيل المراد بالنهي المسائل التي نزل فيها {لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم} وقيل يتناول الإكثار من تفريع المسائل، ونقل عن مالك أنه قال: والله إني لأخشى أن يكون هذا الذي أنتم فيه من تفريع المسائل، ومن ثم كره جماعة من السلف السؤال عما لم يقع، لما يتضمن من التكلف في الدين، والتنطع، والرجم بالظن من غير ضرورة.

وقد تقدم كثير من هذه المباحث عند شرح الحديث في كتاب الصلاة[1]، وأنَّ المراد بالنهي

(١) كتاب الأذان باب ١٥٥ ح ٨٤٤ - ١ / ٤٥٠

عن كثرة السؤال في المال. ورجحه بعضهم لمناسبته لقوله «وإضاعة المال».

٢٣ ـ باب حفظ اللسان

ومَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو لِيَصمت

وقوله تعالى: {ما يَلفِظُ من قولٍ إلا لدَيه رَقيبٌ عَتيد} /ق:١٨/.

٦٤٧٤ ـ عن سَهل بن سعدٍ عن رسولِ الله ﷺ قال: «من يَضمَن لي ما بينَ لَحيَيه وما بين رجليه أضمَن له الجنَّة».

[الحديث ٦٤٧٤ - طرفه في: ٦٨٠٧]

٦٤٧٥ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من كان يُؤمنُ باللهِ واليوم الآخر فليَقُل خيراً أو ليَصمُت، ومَن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذِ جارَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخرِ فليُكرم ضَيفَه».

٦٤٧٦ ـ عن أبي شُرَيحٍ الخُزاعيِّ قال: سمعَ أذنايَ ووَعاهُ قلبي النبيَّ ﷺ يقول: «الضيافة ثلاثةُ أيام جائزتهُ. قيل: وما جائزتهُ؟ قال: يومٌ وليلة. قال: ومن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرِم ضيفَه. ومن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليَقل خيراً أو ليَسكت».

٦٤٧٧ ـ عن أبي هريرةَ سمعَ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ العبدَ لَيتكلمُ بالكلمةِ ما يَتبَيَّنُ فيها، يَزِلُّ بها في النار أبعدَ مما بينَ المشرق».

[الحديث ٦٤٧٧ - طرفه في: ٦٤٧٨]

٦٤٧٨ ـ عن أبي هُريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ العبد لَيتكلَّم بالكلمةِ من رضوانِ الله لا يُلقي لها بالاً يرفَعُه اللهُ بها درجات، وإنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالاً يَهوي بها في جهنم».

قوله (باب حفظ اللسان) أي عن النطق بما لا يسوغ شرعاً مما لا حاجة للمتكلم به.

وقد أخرج أبو الشيخ في «كتاب الثواب» والبيهقي في «الشُّعَب» من حديث أبي جحيفة رفعه «أحب الأعمال إلى الله حفظ اللسان».

قوله (وقول(١) الله تعالى ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) والرقيب هو الحافظ والعتيد هو الحاضر، وورد في فضل الصمت عدة أحاديث، منها حديث سفيان بن عبد الله الثقفي «قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ قال: هذا، وأخذ بلسانه» أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح، وتقدم في الإيمان حديث «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ولأحمد وصححه ابن حبان من حديث البراء «وكف لسانك إلا من خير» وعن عقبة بن عامر «قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: أمسك عليك لسانك» الحديث أخرجه الترمذي

(١) رواية الباب واليونينية "وقوله تعالى"

وحسنه، وفي حديث معاذ مرفوعاً «ألا أخبرك بملاك الأمر كله؟ كف هذا، وأشار إلى لسانه. قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه.

وعن أبي هريرة رفعه «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» أخرجه الترمذي وحسنه.

قوله (من يضمن) من الضمان، بمعنى الوفاء بترك المعصية، فأطلق الضمان وأراد لازمه، وهو أداء الحق الذي عليه، فالمعنى من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه أو الصمت عما لا يعنيه، وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال وكفه عن الحرام .

قوله (لَحييْه) هما العظمان في جانبي الفم والمراد بما بينهما: اللسان وما يتأتى به النطق، وبما بين الرجلين: الفرج.

وقال ابن بطال: دل الحديث على أن أعظم البلاء على المرء في الدنيا لسانه وفرجه، فمن وقى شرهما وقى أعظم الشر.

الحديث الثاني حديث أبي هريرة تقدم شرحه في أوائل كتاب الأدب، وفيه الحث على إكرام الضيف ومنع أذى الجار، وفيه «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

الحديث الثالث حديث أبي شريح. وفيه إكرام الضيف أيضاً ثلاثة أيام جائزته، قيل وما جائزته؟ **قال**: يوم وليلة».

قوله (بالكلمة) أي الكلام المشتمل على ما يفهم الخير أو الشر سواء طال أم قصر كما يقال كلمة الشهادة، وكما يقال للقصيدة كلمة فلان.

قوله (ما يتبين فيها) أي لا يتطلب معناه، أي لا يثبتها بفكره ولا يتأملها حتى يتثبت فيها فلا يقولها إلا إن ظهرت المصلحة في القول.

قوله (يزل بها) أي يسقط.

قال ابن عبد البر: الكلمة التي يهوي صاحبها بسببها في النار هي التي يقولها عند السلطان الجائر، وزاد ابن بطال: بالبغي أو بالسعي على المسلم فتكون سبباً لهلاكه وإن لم يرد القائل ذلك لكنها ربما أدت إلى ذلك فيكتب على القائل إثمها، والكلمة التي ترفع بها الدرجات ويكتب بها الرضوان هي التي يدفع بها عن المسلم مظلمة أو يفرج بها عنه كربة أو ينصر بها مظلوماً.

وقال غيره في الأولى: هي الكلمة عند ذي السلطان يرضيه بها فيما يسخط الله، قال

ابن التين: هذا هو الغالب وربما كانت عند غير ذي السلطان ممن يتأتى منه ذلك.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن تكون تلك الكلمة من الخنى والرفث، وأن تكون في التعريض بالمسلم بكبيرة أو بمجون، أو استخفاف بحق النبوة والشريعة وإن لم يعتقد ذلك.

وقال النووي: في هذا الحديث حث على حفظ اللسان، فينبغي لمن أراد أن ينطق أن يتدبر ما يقول قبل أن ينطق، فإن ظهرت فيه مصلحة تكلم وإلا أمسك. قلت: وهو صريح الحديث الثاني والثالث.

قوله (يهوي) قال عياض: المعنى ينزل فيها ساقطاً.

٢٤ ـ باب البكاء من خشية الله عزَّ وجل

٦٤٧٩ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه عنِ النبيِّ ﷺ قال: «سبعةٌ يظلُّهمُ الله في ظِلّه: رجلٌ ذكرَ الله ففاضَت عيناه».

قوله (باب البكاء من خشية الله عز وجل) ذكر فيه طرفاً من حديث السبعة الذين يظلُّهمُ الله في ظله. وتقدم بتمامه في أبواب المساجد مع شرحه[١].

٢٥ ـ باب الخوف منَ الله

٦٤٨٠ ـ عن حذَيفةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «كان رجلٌ ممن كان قبلكم يسيءُ الظنَّ بعمله، فقال لأهله: إذا أنا مُتُّ فخذوني فذَرُّوني في البحر في يومٍ صائف. ففَعلوا به، فجمعَهُ اللهُ ثم قال: ما حملكَ على الذي صنَعت؟ قال: ما حملَني عليه إلا مخافَتُك. فغفرَ له».

٦٤٨١ ـ عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضيَ الله عنه عن النبي ﷺ «ذكر رجلاً فيمن كان سَلَف -أو قَبلكم- آتاهُ الله مالاً وولَداً، يعني أعطاه. قال: فلما حُضرَ قال لبنيه: أيَّ أب كنتُ لكم؟ قالوا: خيرَ أبٍ. قال: فإنه لم يَبتئر عندَ الله خيراً. فسرَّها قتادة: لم يدَّخر. وإن يَقدَم على الله يعذبْه. فانظروا، فإذا متُّ فأحرِقوني، حتى إذا صرتُ فحماً فاسحقوني - أو قال: فاسهكوني، ثم إذا كان ريحٌ عاصف فاذروني فيها، فأخذَ مواثيقَهم على ذلك وربّي. ففعلوا فقال الله: كن. فإذا رجلٌ قائم. ثم قال: أي عبدي، ما حملكَ على ما فعلتَ؟ قال: مخافتُك. أو فرَقٌ منك. فما تَلافاهُ أن رحمَه الله».

قوله (باب الخوف من الله [٢]عز وجل) هو من المقامات العلية، وهو من لوازم الإيمان، قال الله تعالى {وخافون إن كنتم مؤمنين} وقال تعالى {فلا تخشوا الناس واخشون} وقال تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} وتقدم حديث «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية» وكلما كان العبد أقرب إلى ربه كان أشد له خشية ممن دونه، وقد وصف الله تعالى

(١) كتاب الأذان باب / ٣٦ ح ٦٦٠ - ١ / ٣٨٠]

(٢) رواية الباب واليونينية [من الله] بدون «عزّ وجلّ».

الملائكة بقوله {يخافون ربهم من فوقهم} والأنبياء بقوله {الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله}، وإنما كان خوف المقربين أشد لأنهم يطالبون بما لا يطالب به غيرهم فيراعون تلك المنزلة، ولأن الواجب لله منه الشكر على المنزلة فيضاعف بالنسبة لعلو تلك المنزلة، فالعبد إن كان مستقيماً فخوفه من سوء العاقبة لقوله تعالى {يحول بين المرء وقلبه} أو نقصان الدرجة بالنسبة، وإن كان مائلا فخوفه من سوء فعله، وينفعه ذلك مع الندم والإقلاع، فإن الخوف ينشأ من معرفة قبح الجناية والتصديق بالوعيد عليها، وأن يحرم التوبة، أو لا يكون ممن شاء الله أن يغفر له، فهو مشفق من ذنبه طالب من ربه أن يدخله فيمن يغفر له، ويدخل في هذا الباب الحديث الذي قبله، وفيه أيضاً «ورجل دعته امرأة ذات جمال ومال فقال إني أخاف الله» وحديث الثلاثة أصحاب الغار فإن أحدهم الذي عف عن المرأة خوفاً من الله وترك لها المال الذي أعطاها، وقد تقدم بيانه في ذكر بني اسرائيل من أحاديث الأنبياء[١].

قوله (يسيء الظن بعمله) تقدم أنه كان نبّاشاً.

قوله (فذرُوني) بمعنى التفريق، من التذرية ومنه «تذروه الرياح».

قوله (فما تلافاه أن رحمه[٢]) أي تداركه، قال ابن أبي جمرة: كان الرجل مؤمنا لأنّه قد أيقن بالحساب وأن السيآت يعاقب عليها، وأما ما أوصى به فلعله كان جائزاً في شرعهم ذلك لتصحيح التوبة، فقد ثبت في شرع بني إسرائيل قتلهم أنفسهم لصحة التوبة.

قال: وفي الحديث جواز تسمية الشيء بما قرب منه، لأنه قال حضره الموت وإنما الذي حضره في تلك الحالة علاماته، وفيه فضل الأمة المحمدية لما خفف عنهم من وضع مثل هذه الآصار، ومنّ عليهم بالحنيفية السمحة، وفيه عظم قدرة الله تعالى أن جمع جسد المذكور بعد أن تفرق ذلك التفريق الشديد.

قلت: وقد تقدم أن ذلك إخبار عما يكون يوم القيامة.

٢٦ ـ باب الانتهاء عن المعاصي

٦٤٨٢ ـ عن أبي موسى قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَثَلي ومثَلُ ما بعثَني الله كمثل رجلٍ أتى قوماً فقال: رأيتُ الجيشَ بعَيني وإني أنا النذير العُريان، فالنجاءَ النجاء، فأطاعتهُ طائفة فأدلجوا على مَهلِهم فنجَوا، وكذّبتهُ طائفة فصبَّحَهم الجيش فاجتاحَهم».

[الحديث ٦٤٨٢ - طرفه في: ٧٢٨٣]

٦٤٨٣ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنما مثَلي ومثَلُ

(١) كتاب الأنبياء باب ٥٣ ح ٣٤٦٥ - ٣ / ٧٢]

(٢) رواية الباب واليونينية "أن رحمه الله"

الناس كمثل رجل استوقَد ناراً، فلما أضاءت ما حولهُ جعل الفَراشُ وهذه الدوابُّ التي تقع في النار يقعَن فيها، فجعلَ الرجلُ يزَعُهنَّ ويغلبنَه فيقتَحمنَ فيها فأنا آخذ بحُجزِكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها».

٦٤٨٤ ـ عن عبدِ الله بن عمر ﵄ قال: قال النبيُّ ﷺ: «المسلم من سلم المسلمونَ من لسانه ويده، والمهاجِر من هجرَ ما نهى الله عنه».

قوله (باب الإنتهاء عن المعاصي) أي تركها أصلاً ورأسها والإعراض عنها بعد الوقوع فيها.

قوله (وإني أنا النذير العريان) قال ابن بطال: النذير العريان رجل من خثعم حمل عليه رجل يوم ذي الخلصة فقطع يده ويد امرأته فانصرف إلى قومه فحذرهم فضرب به المثل في تحقيق الخبر.

قوله (فأدلجوا) أي ساروا أول الليل أو ساروا الليل كله على الاختلاف في مدلول هذه اللفظة.

قوله (على مَهَلهم) بفتحتين والمراد به الهينة والسكون.

قوله (فجعل الرجل يزعهن) أي يدفعهن.

قوله (فيقتحمن فيها) أي يدخلن.

وفيه إشارة إلى أن الإنسان إلى النذير أحوج منه إلى البشير، لأن جبلته مائلة إلى الحظ العاجل دون الحظ الآجل. وفي الحديث ما كان فيه ﷺ من الرأفة والرحمة والحرص على نجاة الأمة، كما قال تعالى {حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم}.

قوله (بحجزكم) هي معقد الإزار.

٢٧ ـ باب قول النبيِّ ﷺ
«لو تَعلمونَ ما أعلم لضحكتَم قليلاً ولبَكيتم كثيرا».

٦٤٨٥ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه كان قال: «قال رسولُ الله ﷺ: لو تَعلمونَ ما أعلمُ لضَحِكتم قليلاً ولبكَيتم كثيرا».

٦٤٨٦ ـ عن أنسٍ رضيَ الله عنه قال: «قال النبيُّ ﷺ لو تَعلمونَ ما أعلمُ لضَحِكتُم قليلا ولبَكَيتُم كَثيرا».

قوله (باب قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم الخ) ذكر فيه حديث أبي هريرة بلفظ الترجمة.

وحديث أنس كذلك، وهو طرف من حديث تقدم في تفسير المائدة ويأتي شرحه في كتاب

الاعتصام إن شاء الله تعالى، والمراد بالعلم هنا ما يتعلق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه والأهوال التي تقع عند النزع والموت وفي القبر ويوم القيامة، ومناسبة كثرة البكاء وقلة الضحك في هذا المقام واضحة، والمراد به التخويف.

وعن الحسن البصري: «من علم أن الموت مورده، والقيامة موعده، والوقوف بين يدي الله تعالى مشهده، فحقه أن يطول في الدنيا حزنه».

٢٨ ـ باب حُجَبَتِ النار بالشهوات

٦٤٨٧ ـ عن أبي هريرةَ أن رسولَ الله ﷺ قال: «حُجِبَتِ النارُ بالشهوات، وحُجِبَتِ الجنَّةُ بالمكارِهِ».

قوله (باب حجبت النار بالشهوات) كذا للجميع، ووقع عند أبي نعيم «حفت» بدل «حجبت» أي غطيت بها فكانت الشهوات سبباً للوقوع في النار.

وهو من جوامع كلمه ﷺ وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس، والحض على الطاعات وإن كرهتها النفوس وشق عليها.

وقوله «حفت» من الحفاف وهو ما يحيط بالشيء حتى لا يتوصل إليه إلا بتخطيه فالجنة لا يتوصل إليها إلا بقطع مفاوز المكاره، والنار لا ينجى منها إلا بترك الشهوات.

٢٩ ـ باب الجنَّة أقربُ إلى أحدكم من شراك نَعله، والنارُ مثلُ ذلك

٦٤٨٨ ـ عن عبدِ الله رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «الجنة أقربُ إلى أحدكم من شِراكِ نعلِه. والنارُ مثلُ ذلك».

٦٤٨٩ ـ عن أبي هريرة عنِ النبيِّ ﷺ قال: «أصدقُ بيت قاله الشاعر: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلٌ».

قال ابن بطال: فيه أن الطاعة موصلة إلى الجنة وأن المعصية مقربة إلى النار، وأن الطاعة والمعصية قد تكون في أيسر الأشياء.

وتقدم في هذا المعنى قريباً حديث «إن الرجل ليتكلم بالكلمة» الحديث، فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه، ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها ولا السيئة التي يسخط عليه بها.

وقال ابن الجوزي: معنى الحديث أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة، والنار كذلك بموافقة الهوى وفعل المعصية.

٣٠ ـ باب لِيَنظر إلى من هوَ أسفلَ منه، ولا يَنظر إلى من هوَ فَوقَه

٦٤٩٠ ـ عن أبي هريرة عن رسولِ الله ﷺ قال: إذا نظرَ أحدُكم إلى من فُضِّلَ عليه في

المال والخَلقِ فليَنظر إلى من هوَ أسفلَ منه ممن فُضّل عليه».

قال ابن بطال: هذا الحديث جامع لمعاني الخير لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهداً فيها إلا وجد من هو فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله فيكون أبداً في زيادة تقربه من ربه، ولا يكون على حال خسيسة من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أخس حالاً منه.

فإذا تفكر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فضل عليه بذلك من غير أمر أوجبه، فيلزم نفسه الشكر، فيعظم اغتباطه بذلك في معاده.

٣١ ـ باب من همَّ بحسنةٍ أو بسَيِّئة

٦٤٩١ ـ عن ابن عباس رضي اللهُ عنهما عن النبيِّ ﷺ فيما يَروي عن ربه عزَّ وجلَّ قال: «إنَّ الله كتبَ الحسناتِ والسِّيئات ثم بينَ ذلك، فمن همَّ بحسنةٍ فلم يَعملها كتبها اللهُ له عندَهُ حسنَة كاملة، فإن هوَ هم بها فَعَمِلها كتبها الله له عنده عشرَ حسنات إلى سبعمائةِ ضِعف إلى أضعافٍ كثيرة. ومن هم بسيِّئةٍ فلم يعملها كتبها اللهُ له عندَه حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملَها كتبها الله له سيئة واحدة».

قوله (باب من هم بحسنة أو بسيئة) الهم ترجيح قصد الفعل، تقول هممت بكذا أي قصدته بهمتي، وهو فوق مجرد خطور الشيء بالقلب.

قوله (فيما يروي عن ربه) هذا من الأحاديث الإلهية، ثم هو محتمل أن يكون مما تلقاه ﷺ عن ربه بلا واسطة ويحتمل أن يكون مما تلقاه بواسطة الملك وهو الراجح.

قوله (ثم بين ذلك) أي فصله بقوله «فمن هم» والمجمل قوله «كتب الحسنات والسيئات» وقوله «كتب» قال الطوفي: أي أمر الحفظة أن تكتب، أو المراد قدر ذلك في علمه على وفق الواقع منها.

وقال غيره: المراد قدر ذلك وعرف الكتبة من الملائكة ذلك التقدير، فلا يحتاج إلى الاستفسار في كل وقت عن كيفية الكتابة لكونه أمراً مفروغاً منه انتهى.

وقد وجدت عن الشافعي ما يوافق ظاهر الخبر، وأن المؤاخذة إنما تقع لمن همَّ على الشيء فشرع فيه. لا من همَّ به ولم يتصل به العمل.

قوله (فمن هم) ووقع لمسلم أيضاً من رواية همام عن أبي هريرة بلفظ «إذا تحدث» وهو محمول على حديث النفس لتوافق الروايات الأخرى، ويحتمل أن يكون على ظاهره ولكن ليس قيداً في كتابة الحسنة بل بمجرد الإرادة تكتب الحسنة، نعم ورد ما يدل على أن مطلق الهم والإرادة لا يكفي، فعند احمد وصححه ابن حبان والحاكم من حديث خريم بن فاتك رفعه «ومن

هم بحسنة يعلم الله أنه قد أشعر بها قلبه وحرص عليها» وقد تمسك به ابن حبان فقال بعد إيراد حديث الباب في صحيحه: المراد بالهم هنا العزم.

ثم قال: ويحتمل أن الله يكتب الحسنة بمجرد الهم بها وإن لم يعزم عليها زيادة في الفضل.

قوله (فلم يعملها) يتناول نفي عمل الجوارح، وأما عمل القلب فيحتمل نفيه أيضاً إن كانت الحسنة تكتب بمجرد الهم كما في معظم الأحاديث، لا أن قيدت بالتصميم كما في حديث خريم، ويؤيد الأول حديث أبي ذر عند مسلم أن الكف عن الشر صدقة.

قوله (ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة) قال الخطابي: محل كتابة الحسنة على الترك أن يكون التارك قد قدر على الفعل ثم تركه، لأن الإنسان لا يسمى تاركاً إلا مع القدرة، ويدخل فيه من حال بينه وبين حرصه على الفعل مانع كأن يمشي إلى امرأة ليزني بها مثلاً فيجد الباب مغلقاً ويتعسر فتحه، ومثله من تمكن من الزنا مثلاً فلم ينتشر أو طرقه ما يخاف من أذاه عاجلاً.

قوله (فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة) وزاد مسلم في حديث أبي ذر «فجزاؤه بمثلها أو أغفر».

والمعنى أن الله يمحوها بالفضل أو بالتوبة أو بالاستغفار أو بعمل الحسنة التي تكفر السيئة، والأول أشبه لظاهر حديث أبي ذر، وفيه رد لقول من ادعى أن الكبائر لا تغفر إلا بالتوبة.

قال ابن بطال: في هذا الحديث بيان فضل الله العظيم على هذه الأمة لأنَّه لولا ذلك كاد لا يدخل أحد الجنة، لأن عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم للحسنات، ويؤيد ما دل عليه حديث الباب من الإثابة على الهم بالحسنة وعدم المؤاخذة على الهم بالسيئة قوله تعالى {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} اذ ذكر في السوء الافتعال الذي يدل على المعالجة والتكلف فيه بخلاف الحسنة، وفيه ما يترتب للعبد على هجران لذته وترك شهوته من أجل ربه رغبة في ثوابه ورهبة من عقابه، واستدل به على أن الحفظة لا تكتب المباح للتقييد بالحسنات والسيآت، وأجاب بعض الشراح بأن بعض الأئمة عد المباح من الحسن.

٣٢ ـ باب ما يُتقى من محقَّرات الذُّنوب

٦٤٩٢ ـ عن أنس رضيَ الله عنه قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدَقُّ في أعيِنكم من الشَّعر، إن كنا لنَعدُّها عَلَى عهدِ النبي ﷺ من الموبقات».

قوله (باب ما يتقى من محقرات الذنوب) التعبير بالمحقرات وقع في حديث سهل بن سعد

رفعه «إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به.

قوله (هي أدق) أفعل التفضيل من الدِّقة إشارة إلى تحقيرها وتهوينها وتستعمل في تدقيق النظر في العمل الإمعان فيه أي تعملون أعمالاً تحسبونها هينة وهي عظيمة أو تؤول إلى العظم.

قال ابن بطال: المحقرات إذا كثرت صارت كباراً مع الإصرار، وقد أخرج أسد بن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري قال: «إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها وينسى المحقرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مشفقاً حتى يلقى الله آمنا».

٣٣ ـ باب الأعمالُ بالخواتيم، وما يُخافُ منها

٦٤٩٣ ـ عن سهلِ بن سعد الساعدي قال: «نظرَ النبيُّ ﷺ إلى رجلٍ يُقاتلُ المشركين -وكان من أعظم المسلمينَ غنَاءً عنهم- فقال: من أحب أن ينظُرَ إلى رجل من أهلِ النار فلينظر إلى هذا، فتبِعَهُ رجل، فلم يزل على ذلك حتى جُرِحَ، فاستعجَل الموتَ فقال بذُبابة سيفه فوضعَهُ بينَ ثَدييهِ فتحامَل عليه حتى خرَجَ من بين كتِفَيه، فقال النبيُّ ﷺ: إن العبدَ ليعمل -فيما يرَى الناسُ- عملَ أهلِ الجنَّة، وإنهُ لمن أهل النار، ويعملُ -فيما يرَى الناس- عملَ أهلِ النار وهو من أهلِ الجنَّة، وإنما الأعمالُ بخواتيمها».

قوله (باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها) ذكر فيه حديث سهل بن سعد في قصة الذي قتل نفسه وفي آخر «وإنما الأعمال بالخواتيم» وتقدم شرح القصة في غزوة خيبر من كتاب المغازي(١).

قال ابن بطال: في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف، لأنه لو علم وكان ناجياً أعجب وكسل وإن كان هالكاً ازداد عتواً فحجب عنه ذلك ليكون بين الخوف والرجاء، وقد روى الطبري عن حفص بن حميد قال: قلت لابن المبارك رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً فقلت في نفسي أنا أفضل من هذا، فقال: أمنك على نفسك أشد من ذنبه.

قال الطبري: لأنه لا يدري ما يؤول إليه الأمر لعل القاتل يتوب فتقبل توبته، ولعل الذي أنكر عليه يختم له بخاتمة السوء.

٣٤ ـ باب العزلةُ راحةٌ من خُلاَّط السُّوء

٦٤٩٤ ـ عن أبي سعيد الخدري قال: «جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أي الناس خيرٌ؟ قال: رجلٌ جاهدَ بنفسه ومالهِ، ورجلٌ في شِعب من الشعاب يعبُد ربه ويَدَعُ

(١) كتاب المغازي باب ٣٨ ح ٤٢٠٢ - ٣ / ٤٤٦]

الناسَ من شَرِه».

٦٤٩٥ ـ عن أبي سعيد أنه يقول: «سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: يأتي على الناس زمانٌ خير مالِ الرجلِ المسلم الغنمُ يتبع بها شَعفَ الجبالِ ومواقعَ القطر، يفرُّ بدينِه من الفِتَن».

قوله (باب العزلة راحة للمؤمن[1]من خُلّاط السوء) وقال ابن المبارك في «كتاب الرقائق» قال عمر: «خذوا حظكم من العزلة» وما أحسن قول الجنيد نفع الله ببركته «مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة» وقال الخطابي: لو لم يكن في العزلة إلا السلامة من الغيبة ومن رؤية المنكر الذي لا يقدر على إزالته لكان ذلك خيراً كثيرا.

وفي معنى الترجمة ما أخرجه الحاكم من حديث أبي ذر مرفوعاً بلفظ «الوحدة خير من جليس السوء» وسنده حسن.

والشعب: الطريق في الجبل أو الموضع فيه، وشعف: رأس الجبل، وذكر الخطابي في: «كتاب العزلة» أن العزلة والاختلاط يختلف باختلاف متعلقاتهما فتحمل الأدلة الواردة في الحض على الاجتماع على ما يتعلق بطاعة الأئمة وأمور الدين وعكسها في عكسه، وأما الاجتماع والافتراق بالأبدان فمن عرف الاكتفاء بنفسه في حق معاشه ومحافظة دينه فالأولى له الانكفاف من مخالطة الناس بشرط أن يحافظ على الجماعة والسلام والرد وحقوق المسلمين من العيادة وشهود الجنازة ونحو ذلك، والمطلوب إنما هو ترك فضول الصحبة لما في ذلك من شغل البال وتضييع الوقت عن المهمات، ويجعل الاجتماع بمنزلة الاحتياج إلى الغداء والعشاء فيقتصر منه على ما لا بد له منه فهو أروح للبدن والقلب والله أعلم.

وقال القشيري في «الرسالة»: طريق من آثر العزلة أن يعتقد سلامة الناس من شره لا العكس، فإن الأول ينتجه استصغاره نفسه وهي صفة المتواضع، والثاني شهوده مزية له على غيره، وهذه صفة المتكبر.

٣٥ ـ باب رفع الأمانة

٦٤٩٦ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: «قال رسولُ الله ﷺ: إذا ضُيِّعَتِ الأمانة فانتظرِ الساعة. قال: كيفَ إضاعتُها يا رسولَ الله؟ قال: إذا أُسنِدَ الأمرُ إلى غير أهلِهِ فانتظرِ الساعة».

٦٤٩٧ ـ عن حذيفة قال: «حدَّثنا رسولُ الله ﷺ حديثين رأيتُ أحدَهما وأنا أنتظرُ الآخر، حدَّثنا أن الأمانة نزلت في جَذر قلوب الرجال، ثمَّ علموا من القرآن، ثم علموا من السُّنَّة، وحدَّثنا عن رفعها قال: يَنامُ الرجلُ النَّومة فتُقبضُ الأمانة من قَلبهِ، فيَظلُّ أثرُها مثل أثرِ الوكت. ثم ينامُ النومة فتُقبضُ، فيبقى أثرُها مثلَ المجل، كجمر دَحرجتَهُ على رِجلكَ فنَفِط،

(١) كتاب الشفعة باب / ١ ح ٢٢٥٧

فتراهُ مُنتَبراً وليسَ فيه شيء. فيُصبحُ الناسُ يَتبايعون، فلا يكادُ أحدُهم يُؤدِّي الأمانة فيقال: إن في بني فلان رجُلاً أميناً. ويقال للرَّجل ما أعقلَه وما أظرفَهُ وما أجلدَه، وما في قلبهِ مثقالُ حبةِ خَردَلٍ من إيمان. ولقد أتى عليَّ زمانٌ وما أبالي أيَّكم بايعتُ، لئن كان مسلماً ردَّهُ عليَّ الإسلام، وإن كان نصرانياً ردَّه عليَّ ساعيه. فأما اليوم فما كنتُ أُبايعُ إلا فلاناً وفلاناً».

[الحديث ٦٤٩٧ - طرفاه في: ٧٠٨٦، ٧٢٧٦]

٦٤٩٨ - عن عبدِ الله بنِ عمر رضيَ الله عنهما قال «سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إنما الناس كالإبل المائة لا تكادُ تجِدُ فيها راحلة».

قوله (باب رفع الأمانة) هي ضد الخيانة والمراد برفعها إذهابها بحيث يكون الأمين معدوماً أو شبه المعدوم.

قوله (إذا ضيعت الأمانة) هذا جواب الأعرابي الذي سأل عن قيام الساعة وهو القائل كيف إضاعتها؟.

قوله (إذا أسند) والمراد من «الأمر» جنس الأمور التي تتعلق بالدين كالخلافة والإمارة والقضاء والإفتاء وغير ذلك.

قال ابن بطال: معنى «أسند الأمر إلى غير أهله» أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عباده وفرض عليهم النصيحة لهم، فينبغي لهم تولية أهل الدين، فإذا قلدوا غير أهل الدين فقد ضيعوا الأمانة التي قلدهم الله تعالى إياهم.

الحديث الثاني حديث حذيفة في ذكر الأمانة وفي ذكر رفعها، وسيأتي بسنده ومتنه في كتاب الفتن ويشرح هناك إن شاء الله تعالى. والمنتبر: وهو المنتفط.

قوله (بايعت) قال الخطابي: أراد مبايعة البيع والشراء.

قوله (نصرانياً رده على ساعيه) أي واليه الذي أقيم عليه لينصف منه، وأكثر ما يستعمل الساعي في ولاة الصدقة، ويحتمل أن يراد به هنا الذي يتولى قبض الجزية.

نقل عن ابن قتيبة أن الراحلة هي النجيبة المختارة من الإبل للركوب.

قوله (إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة) وقال الأزهري: الراحلة عند العرب الذكر النجيب والأنثى النجيبة.

والمعنى أن الزاهد في الدنيا الكامل فيه الراغب في الآخرة قليل كقلة الراحلة في الإبل وقال النووي: هذا أجود وأجود منهما قول آخرين إن المرضيَّ الأحوال من الناس الكامل الأوصاف قليل، قلت: هو الثاني، إلا أنَّه خصصه بالزاهد، والأولى تعميمه كما قال الشيخ،

قال القرطبي: الذي يناسب التمثيل أن الرجل الجواد الذي يحمل أثقال الناس والحمالات عنهم ويكشف كربهم عزيز الوجود كالراحلة في الإبل الكثيرة.

وقال ابن بطال: معنى الحديث أن الناس كثير والمرضيّ منهم قليل، وإلى هذا المعنى أومأ البخاري بإدخاله في «باب رفع الأمانة» لأن من كانت هذه صفته فالاختيار عدم معاشرته.

٣٦ ـ باب الرياء والسُّمعة

٦٤٩٩ ـ عن جندب قال: «قال النبيُّ ﷺ -ولم أسمع أحداً يقول قال النبيُّ ﷺ غيرَه، فدَنوتُ منه فسمعتُهُ يقول: قال النبي ﷺ: من سَمَّعَ سمَّعَ الله به، ومن يُرائي يرائي الله به».

[الحديث ٦٤٩٩ - طرفه في: ٧١٥٢]

قوله (باب الرياء والسمعة) الرياء مشتق من الرؤية والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها، والسمعة مشتقة من سمع، والمراد بها نحو ما في الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر.

وقال الغزالي: المعنى طلب المنزلة في قلوب الناس بأن يريهم الخصال المحمودة، والمرائي هو العامل. وقال ابن عبد السلام: الرياء أن يعمل لغير الله والسمعة أن يخفي عمله لله ثم يحدث به الناس.

قوله (من سمَّع) ولابن المبارك في الزهد من حديث ابن مسعود «من سمع سمع الله به، ومن رآآى رآآى الله به، ومن تطاول تعاظماً خفضه الله، ومن تواضع تخشعاً رفعه الله» وفي حديث ابن عباس «من سمَّع سمَّع الله به ومن رأى رأى الله به».

قال الخطابي: معناه من عمل عملاً على غير إخلاص وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه ويظهر ما كان يبطنه.

وقيل من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس ولم يرد به وجه الله فإن الله يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم ولا ثواب له في الآخرة، ومعنى يرائي يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه، ومنه قوله تعالى: {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها -إلى قوله- ما كانوا يعملون} وقيل: المراد من قصد بعمله أن يسمعه الناس ويروه ليعظموه وتعلو منزلته عندهم حصل له ما قصد، وكان ذلك جزاءه على عمله، ولا يثاب عليه في الآخرة.

وقيل المعنى، من سمع بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله عيوبه وسمعه المكروه.

وقيل المعنى من نسب إلى نفسه عملاً صالحاً لم يفعله وادعى خيراً لم يصنعه فإن الله يفضحه ويظهر كذبه.

وفي الحديث استحباب إخفاء العمل الصالح، لكن قد يستحب إظهاره ممن يُقتدى به على إرادته الاقتداء به، ويقدر ذلك بقدر الحاجة.

قال ابن عبد السلام: يستثنى من استحبا بإخفاء العمل من يظهره ليقتدي به أو لينتفع به ككتابة العلم، ومنه حديث سهل الماضي في الجمعة «لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي» قال الطبري: كان ابن عمر وابن مسعود وجماعة من السلف يتهجدون في مساجدهم ويتظاهرون بمحاسن أعمالهم ليقتدى بهم، فقال: فمن كان إماماً يستن بعمله عالماً بما لله عليه قاهراً لشيطانه استوى ما ظهر من عمله وما خفي لصحة قصده، ومن كان بخلاف ذلك فالإخفاء في حقه أفضل، وعلى ذلك جرى عمل السلف. فمن الأول حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال: «سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ ويرفع صوته بالذكر فقال: إنه أوّاب قال: فإذا هو المقداد بن الأسود» أخرجه الطبري، ومن الثاني حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: «قام رجل يصلي فجهر القراءة فقال له النبي ﷺ: لا تسمعني وأسمع ربك» أخرجه أحمد وابن أبي خيثمة وسنده حسن.

٣٧ ـ باب مَن جاهدَ نفسَه في طاعة الله

٦٥٠٠ ـ عن مُعاذِ بن جبلٍ رضي الله عنه قال: «بينا أنا رَديفُ النبي ﷺ ليس بيني وبينَه إلا آخِرَة الرحل فقال: يا معاذُ، قلتُ: لبيك يا رسولَ الله وسعدَيك. ثم سارَ ساعةً، ثم قال: يا مُعاذ، قلتُ لبيك رسول اللهِ وسَعدَيك. ثم سارَ ساعة؛ ثم قال: يا معاذَ بن جَبل، قلت: لبيكَ رسولَ الله وسعدَيك. قال: هل تدري ما حق اللهِ على عبادِه؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق اللهِ على عبادِه أن يَعبدوه ولا يُشرِكوا به شيئاً. ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذَ بن جبل، قلت: لبيكَ رسول الله وسَعدَيك. قال: هل تدري ما حق العبادِ على الله إذا فعلوه؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق العباد على الله أن لا يعذِّبَهم».

قوله (باب من جاهد نفسه في طاعة الله[1] عز وجل) يعني بيان فضل من جاهد، والمراد بالمجاهدة كف النفس عن إرادتها من الشغل بغير العبادة، وبهذا تظهر مناسبة الترجمة لحديث الباب.

وقال ابن بطال: جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل، قال الله تعالى: {وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى} الآية.

ويقع بمنع النفس عن المعاصي، وبمنعها من الشبهات، وبمنعها من الإكثار من الشهوات المباحة لتتوفر لها في الآخرة.

قلت: ولئلا يعتاد الإكثار فيألفه فيجره إلى الشبهات فلا يأمن أن يقع في الحرام.

(١) رواية الباب واليونينية بدون "عزّ وجلّ"

وعن أبي عمرو بن بجيد: من كرم عليه دينه هانت عليه نفسه. قال القشيري: أصل مجاهدة النفس فطمها عن المألوفات وحملها على غير هواها.

وللنفس صفتان: انهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات، فالمجاهدة تقع بحسب ذلك.

قال بعض الأئمة: جهاد النفس داخل في جهاد العدو، فإن الأعداء ثلاثة: رأسهم الشيطان، ثم النفس لأنها تدعو إلى اللذات المفضية بصاحبها إلى الوقوع في الحرام الذي يسخط الرب، والشيطان هو المعين لها على ذلك ويُزَيِّنه لها، فمن خالف هوى نفسه قمع شيطانه، فمجاهدته نفسه حملها على اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، وإذا قوي العبد على ذلك سهل عليه جهاد أعداء الدين، فالأول الجهاد الباطن والثاني الجهاد الظاهر.

وجهاد النفس أربع مراتب: حملها على تعلم أمور الدين، ثم حملها على العمل بذلك، ثم حملها على تعليم من لا يعلم، ثم الدعاء إلى توحيد الله وقتال من خالف دينه وجحد نعمه.

وأقوى المعين على جهاد النفس جهاد الشيطان بدفع ما يلقي إليه من الشبهة والشك، ثم تحسين ما نُهي عنه من المحرمات، ثم ما يفضي الإكثار منه إلى الوقوع في الشبهات، وتمام ذلك من المجاهدة أن يكون متيقظاً لنفسه في جميع أحواله فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات وبالله التوفيق.

قوله (فقال يا معاذ، قلت لبيك) تقدم بيان ذلك في كتاب الحج[١].

قوله (هل تدري ما حق الله على عباده) والمراد هنا ما يستحقه الله على عباده مما جعله محتماً عليهم قاله ابن التيمي في التحرير، قال القرطبي: حق الله على العباد هو ما وعدهم به من الثواب وألزمهم إياه بخطابه.

قوله (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) المراد بالعبادة عمل الطاعات واجتناب المعاصي وعطف عليها عدم الشرك لأنه تمام التوحيد، والحكمة في عطفه على العبادة أن بعض الكفرة كانوا يدعون أنهم يعبدون الله ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى فاشترط نفي ذلك، وتقدم أن الجملة حالية والتقدير يعبدونه في حال عدم الإشراك به.

قال ابن حبان: عبادة الله إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح، ولهذا قال في الجواب: «فما حق العباد إذا فعلوا ذلك» فعبر بالفعل ولم يعبر بالقول.

قوله (حق العباد على الله أن لا يعذبهم) قال القرطبي: حق العباد على الله ما وعدهم به من الثواب والجزاء، فحُقَّ ذلك ووجب بحكم وعده الصدق، وقوله الحق الذي لا يجوز عليه الكذب في الخبر ولا الخلف في الوعد، فالله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء بحكم الأمر إذ لا آمر فوقه ولا حكم للعقل لأنه كاشف لا موجب انتهى.

(١) [كتاب الحج باب / ٢٦ ح ١٥٤٩ - ٢ / ١٥]

قال: وفي الحديث جواز ركوب اثنين على حمار، وفيه تواضع النبي ﷺ، وفضل معاذ وحسن أدبه في القول وفي العلم برده لما لم يحط بحقيقته إلى علم الله ورسوله، وقرب منزلته من النبي ﷺ، فيه تكرار الكلام لتأكيده وتفهيمه، واستفسار الشيخ تلميذه عن الحكم ليختبر ما عنده ويبين له ما يشكل عليه منه، وقال ابن رجب في شرحه لأوائل البخاري: قال العلماء يؤخذ من منع معاذ من تبشير الناس لئلا يتكلوا أن أحاديث الرخص لا تشاع في عموم الناس لئلا يقصر فهمهم عن المراد بها، وقد سمعها معاذ فلم يزدد إلا اجتهاداً في العمل وخشية لله عز وجل، فأما من لم يبلغ منزلته فلا يؤمن أن يقصر اتكالاً على ظاهر هذا الخبر، وقد عارضه ما تواتر من نصوص الكتاب والسنة أن بعض عصاة الموحدين يدخلون النار، فعلى هذا فيجب الجمع بين الأمرين، وقد سلكوا في ذلك مسالك: أحدها قول الزهري إن هذه الرخصة كانت قبل نزول الفرائض والحدود، وسيأتي ذلك عنه في حديث عثمان في الوضوء، واستبعده غيره من أن النسخ لا يدخل الخبر، وبأن سماع معاذ لهذه كان متأخراً عن أكثر نزول الفرائض، وقيل لا نسخ بل هو على عمومه، ولكنه مقيد بشرائط كما ترتب الأحكام على أسبابها المقتضية المتوقفة على انتفاء الموانع، فإذا تكامل ذلك علم المقتضى عمله، وإلى ذلك أشار وهب بن منبه بقوله المتقدم في كتاب الجنائز في شرح «أن لا إله إلا الله مفتاح الجنة»: ليس من مفتاح إلا وله أسنان.

٣٨ ـ باب التواضع

٦٥٠١ ـ عن أنس قال: كانت ناقةٌ لرسول الله ﷺ تسمى العَضباءَ، وكانت لا تُسبَق، فجاء أعرابيٌّ على قَعودٍ له فسبَقَها، فاشتد ذلك على المسلمينَ وقالوا: سُبِقتِ العَضباء، فقال رسول الله ﷺ: «إن حقاً على اللهِ أن لا يَرفَعَ شيئاً من الدنيا إلا وَضَعَه».

٦٥٠٢ ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي وَلياً فقد آذَنته بالحرب. وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبُّ إليَّ مما افترَضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبَبته كنت سمعَه الذي يسمع به وبَصرَه الذي يبصر به ويدَه التي يبطِش بها. ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنَّه. وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترَدُّدي عن نفسِ المؤمن يكرَه الموتَ وأنا أكرَه مَساءته».

قوله (باب التواضع) المراد بالتواضع إظهار التنزل عن المرتبة لمن يراد تعظيمه، وقيل هو تعظيم من فوقه لفضله.

وذكر فيه حديثين أحدهما حديث أنس في ذكر الناقة لما سُبِقت، وقد تقدم شرحه في كتاب

الجهاد في «باب ناقةِ النبي ﷺ» وزعم بعضهم أنه لا مدخل له في هذه الترجمة، وغفل عما وقع في بعض طرقه عند النسائي بلفظ «حق على الله أن لا يرفع شيء نفسه في الدنيا إلا وضعه» فإن فيه إشارة إلى الحث على عدم الترفع، والحث على التواضع، والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة.

قال ابن بطال: فيه هوان الدنيا على الله، والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة، وأن كل شيء هان على الله فهو في محل الضعة فحق على كل ذي عقل أن يزهد فيه ويقل منافسته في طلبه.

وقال الطبري: في التواضع مصلحة الدين والدنيا، فإن الناس لو استعملوه في الدنيا لزالت بينهم الشحناء ولاستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة، قلت: وفيه أيضاً حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه، لكونه رضي أن أعرابياً يسابقه، وفيه جواز المسابقة.

قوله (من عادى لي ولياً) المراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته.

وقد استشكل وجود أحد يعاديه لأن المعاداة إنما تقع من الجانبين ومن شأن الولي الحلم والصفح عمن يجهل عليه، وأجيب بأن المعاداة لم تنحصر في الخصومة والمعاملة الدنيوية مثلاً بل قد تقع عن بغض ينشأ عن التعصب كالرافضي في بغضه لأبي بكر، والمبتدع في بغضه للسني، فتقع المعاداة من الجانبين، أما من جانب الولي فلله تعالى وفي الله، وأما من جانب الآخر فلما تقدم، وكذا الفاسق المتجاهر ببغضه الولي في الله وببغضه الآخر لإنكاره عليه وملازمته لنهيه عن شهواته.

قال ابن هبيرة: ويستفاد من هذا الحديث تقديم الإعذار على الإنذار وهو واضح.

قوله (فقد آذنته) أي أعلمته، والإيذان الإعلام، ومنه أخذ الآذان.

قوله (بالحرب) وقد استشكل وقوع المحاربة وهي مفاعلة من الجانبين مع أن المخلوق في أسر الخالق، والجواب أنه من المخاطبة بما يفهم، فإن الحرب تنشأ عن العداوة والعداوة تنشأ عن المخالفة وغاية الحرب الهلاك والله لا يغلبه غالب، فكأن المعنى فقد تعرض لإهلاكي إياه.

فأطلق الحرب وأراد لازمه أي أعمل به ما يعمله العدو المحارب.

قال الفاكهاني: في هذا تهديد شديد، لأن من حاربه الله أهلكه، وهو من المجاز البليغ، لأن من كره من أحب الله خالف الله ومن خالف الله عانده ومن عانده أهلكه، وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت في جانب الموالاة، فمن والى أولياء الله أكرمه الله.

وقال الطوفي: لما كان ولي الله من تولى الله بالطاعة والتقوى تولاه الله بالحفظ والنصرة، وقد أجرى الله العادة بأن عدو العدو صديق وصديق العدو عدو فعدو ولي الله عدو الله فمن عاداه كان كمن حاربه ومن حاربه كأنما حارب الله.

قوله (وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبُّ إليّ مما افترضت عليه) ويدخل تحت هذا اللفظ جميع فرائض العين والكفاية.

ويستفاد منه أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله.

قال الطوفي: الأمر بالفرائض جازم ويقع بتركها المعاقبة، بخلاف النفل في الأمرين وإن اشترك مع الفرائض في تحصيل الثواب فكانت الفرائض أكمل فلهذا كانت أحب إلى الله تعالى وأشد تقريباً، وأيضاً فالفرض كالأصل والأس والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الآمر وتعظيمه بالانقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية فكان التقرب بذلك أعظم العمل، والذي يؤدي الفرض قد يفعله خوفاً من العقوبة ومؤدي النفل لا يفعله إلا إيثاراً للخدمة فيجازى بالمحبة التي هي غاية مطلوب من يتقرب بخدمته.

قوله (يتقرب إليّ) التقرب طلب القرب، قال أبو القاسم القشيري: قرب العبد من ربه يقع أولا بإيمانه، ثم بإحسانه.

وقرب الرب من عبده ما يخصه به في الدنيا من عرفانه، وفي الآخرة من رضوانه، وفيما بين ذلك من وجوه لطفه وامتنانه.

قوله (بالنوافل حتى أحببته[1])وفي رواية الكُشميهني «أحبه» ظاهر أن محبة الله تعالى للعبد تقع بملازمة العبد التقرب بالنوافل، وقد استشكل بما تقدم أولاً أن الفرائض أحب العبادات المتقرب بها إلى الله فكيف لا تنتج المحبة؟ والجواب أن المراد من النوافل ما كان حاوية للفرائض مشتملة عليها ومكملة لها، ويؤيده أن في رواية أبي أمامة بن آدم.

إنك لن تدرك ما عندي إلا بأداء ما افترضت عليك، وقال الفاكهاني: معنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض ودام على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالى.

وقال ابن هبيرة: يؤخذ من قوله «ما تقرب الخ» أن النافلة لا تقدم على الفريضة، لأن النافلة إنما سميت نافلة لأنها تأتي زائدة على الفريضة، فما لم تؤد الفريضة لا تحصل النافلة، ومن أدى الفرض ثم زاد عليه النفل وأدام ذلك تحققت منه إرادة التقرب انتهى.

وأيضاً فقد جرت العادة أن التقرب يكون غالباً بغير ما وجب على المتقرب كالهدية

(١) رواية الباب واليونينية "حتى أحبه".

والتحفة بخلاف من يؤدي ما عليه من خراج أو يقضي ما عليه من دين.
وأيضاً فإن من جملة ما شرعت له النوافل جبر الفرائض كما صح في الحديث الذي أخرجه مسلم «أنظروا هل لعبدي من تطوع فتكمل به فريضته» الحديث بمعناه فتبين أن المراد من التقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا من أخلّ بها كما قال بعض الأكابر: من شغله الفرض عن النفل فهو معذور ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور.
وقال الخطابي: هذه أمثال والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله، وإلى هذا نحا الداودي، ومثله الكلاباذي، وعبر بقوله أحفظه فلا يتصرف إلا في محابّي، لأنه إذا أحبه كره له أن يتصرف فيما يكرهه منه.
سابعها قال الخطابي أيضاً: وقد يكون عبر بذلك عن سرعة إجابة الدعاء والنجح في الطلب، وذلك أن مساعي الإنسان كلها إنما تكون بهذه الجوارح المذكورة.
وقال بعضهم: وهو منتزع مما تقدم لا يتحرك له جارحة إلا في الله ولله، فهي كلها تعمل بالحق للحق.
قوله (ولئن استعاذني[١]) وفي حديث أبي أمامة «وإذا استنصر بي نصرته» ويستفاد منه أن المراد بالنوافل جيمع ما يندب من الأقوال والأفعال.
وقد استشكل بأن جماعة من العباد والصلحاء دعوا وبالغوا ولم يجابوا، والجواب أن الإجابة تتنوع: فتارة يقع المطلوب بعينه على الفور، وتارة يقع ولكن يتأخر لحكمة فيه، وتارة قد تقع الإجابة ولكن بغير عين المطلوب حيث لا يكون في المطلوب مصلحة ناجزة وفي الواقع مصلحة ناجزة أو أصلح منها، وفي الحديث عظم قدر الصلاة فإنه ينشأ عنها محبة الله للعبد الذي يتقرب بها، وذلك لأنها محل المناجاة والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وربه، ولا شيء أقر لعين العبد منها ولهذا جاء في حديث أنس المرفوع «وجعلت قرة عيني في الصلاة» أخرجه النسائي وغيره بسند صحيح، ومن كانت قرة عينه في شيء فإنه يودُّ أن لا يفارقه ولا يخرج منه لأن فيه نعيمه وبه تصيب حياته، وإنما يحصل ذلك للعابد بالمصابرة على النصب، فإن السالك غرض الآفات والفتور، وفي الحديث أيضاً أن من أتى بما وجب عليه وتقرب بالنوافل لم يرد دعاؤه لوجود هذا الوعد الصادق المؤكد بالقسم، وقد تقدم الجواب عما يتخلف من ذلك، فيه أن العبد ولو بلغ أعلى الدرجات حتّى يكون محبوباً لله لا ينقطع عن الطلب من الله لما فيه من الخضوع له وإظهار العبودية، وقد تقدم تقرير هذا واضحاً في أوائل كتاب الدعوات[٢].

---

(١) رواية الباب "استعاذ بي" واليونينية توافق الشرح
(٢) كتاب الدعوات باب / ٣ ح ٦٣٠٧ - ٤ / ٥٦٩

قد ورد في الحث على التواضع عدة أحاديث صحيحة لكن ليس شيء منها على شرطه فاستغنى عنها بحديثي الباب، منها حديث عياض بن حمار رفعه «إن الله تعالى أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد» أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما، ومنها حديث أبي هريرة رفعه «وما تواضع أحد لله تعالى إلا رفعه» أخرجه مسلم أيضاً والترمذي، ومنها حديث أبي سعيد رفعه «من تواضع لله رفعه الله حتى يجعله في أعلى عليين» الحديث أخرجه ابن ماجه وصححه ابن حبان.

٣٩ ـ باب قول النبيِّ ﷺ «بُعثت أنا والساعةَ كهاتَين»

{وما أمرُ الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب، إن الله على كل شيء قَدير} /النحل:٧٧/.

٦٥٠٣ ـ عن سهلٍ قال: قال رسول الله ﷺ «بُعِثتُ أنا والساعةَ كهاتَين. ويُشير بإصبَعَيه فيمدُّهما».

٦٥٠٤ ـ عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «بُعِثتُ أنا والساعةَ كهاتَين».

٦٥٠٥ ـ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «بُعثتُ أنا والساعةَ كهاتَين. يعني إصبعين»، الواو للمعية.

قوله (بعثت أنا والساعة) المراد بالساعة هنا يوم القيامة.

قوله (ويشير بأصبعيه فيمدهما) في رواية سفيان «وقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى».

وقد أخرجه الطبري من حديث جابر بن سمرة «كأني أنظر إلى إصبعي رسول الله ﷺ أشار بالمسبِّحة والتي تليها وهو يقول: بعثت أنا والساعة كهذه من هذه» وفي رواية له عنه «وجمع بين إصبعيه السبابة والوسطى» والمراد بالسبابة وهي الإصبع التي بين الإبهام والوسطى وهي المراد بالمسبحة سميت مسبحة لأنها يشار بها عند التسبيح وتحرك في التشهد عند التهليل إشارة إلى التوحيد.

وقال القرطبي في «المفهم»: حاصل الحديث تقريب أمر الساعة وسرعة مجيئها.

٤٠ ـ باب * ٦٥٠٦ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

لا تقوم الساعة حتّى تَطلُعَ الشمسُ من مغربِها فإذا طلَعت فرآها الناسُ آمنوا أجمعون، فذاك حينَ لا يَنفعُ نفساً إيمانها لم تَكن آمنت من قبلُ أو كسَبَت في إيمانها خيراً. ولَتَقُومنَّ الساعة وقد نَشرَ الرجُلان ثوبهما بينهما فلا يَتبايعانه ولا يَطويانه. ولتقومَنَّ الساعة وقد انصرَفَ الرجُل بلبَنِ لِقحته فلا يَطعمهُ. ولتقومنَّ الساعة وهو يُليط حَوضَه فلا يَسقي فيه. ولَتقومنَّ الساعة وقد رَفعَ أحدُكم أكلتَهُ إلى فيهِ فلا يَطعَمُها».

قوله (حين لا ينفع نفساً إيمانها الآية) قال الطبري: معنى الآية لا ينفع كافرا لم يكن آمن قبل الطلوع إيمان بعد الطلوع، ولا ينفع مؤمنا لم يكن عمل صالحاً قبل الطلوع عملٌ صالح بعد الطلوع، لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة، وذلك لا يفيد شيئاً كما قال تعالى {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا} وكما ثبت في الحديث الصحيح «تقبل توبة العبد ما لم يبلغ الغرغرة» وقال ابن عطية: في هذا الحديث دليل على أن المراد بالبعض في قوله تعالى {يوم يأتي بعض آيات ربك} طلوع الشمس من المغرب، وإلى ذلك ذهب الجمهور.

وقال القاضي عياض: المعنى لا تنفع توبة بعد ذلك، بل يختم على عمل كل أحد بالحالة التي هو عليها، والحكمة في ذلك أن هذا أول ابتداء قيام الساعة بتغير العالم العلوي، فإذا شوهد ذلك حصل الإيمان الضروري بالمعاينة وارتفع الإيمان بالغيب، فهو كالإيمان عند الغرغرة وهو لا ينفع، فالمشاهدة لطلوع الشمس من المغرب مثله، وأجاب ابن المنير في «الانتصاف» فقال: هذا الكلام من البلاغة يلقب اللف، وأصله يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد، ولا نفساً لم تكسب خيراً قبل ما تكتسبه من الخير بعد، فلف الكلامين فجعلهما كلاماً واحدا إيجازاً، وبهذا التقرير يظهر أنها لا تخالف مذهب أهل الحق فلا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير ولو نفع الإيمان المتقدم من الخلود، فهي بالرد على مذهبه أولى من أن تدل له.

وقال ابن الحاجب في أماليه: الإيمان قبل مجيء الآية نافع ولو لم يكن عمل صالح غيره، ومعنى الآية لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح لم يكن الإيمان قبل الآية أو لم يكن العمل مع الإيمان قبلها فاختصر للعلم، ونقل الطيبي كلام الأئمة في ذلك ثم قال: المعتمد ما قال ابن المنير وابن الحاجب، والمعنى يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنة من قبل ذلك إيمانها من بعد ذلك، ولا ينفع نفساً كانت مؤمنة لكن لم تعمل في إيمانها عملاً صالحاً قبل ذلك ما تعمله من العمل الصالح بعد ذلك، قال: وبهذا التقرير يظهر مذهب أهل السنة فلا ينفع بعد ظهور الآية اكتساب الخير أي لإغلاق باب التوبة ورفع الصحف والحفظة، وإن كان ما سبق قبل ظهور الآية من الإيمان ينفع صاحبه في الجملة.

قوله (يليط حوضه) بضم أوله ويقال ألاط حوضه إذا مدره أي جمع حجارة فصيرها كالحوض ثم سد ما بينها من الفرج بالمدر ونحوه لينحبس الماء؛ هذا أصله، وقد يكون للحوض خروق فيسدها بالمدر قبل أن يملأه، وفي كل ذلك إشارة إلى أن القيامة تقوم بغتة كما قال تعالى {لا تأتيكم إلا بغتة}.

٤١ ـ باب من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءَه

٦٥٠٧ ـ عن عبادةَ بن الصامت عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «من أحَبَّ لِقاءَ اللَّه أحبَّ الله لقاءَه، ومن كَرِهَ لقاءَ الله كرِهَ الله لِقاءه». قالت عائشة -أو بعضُ أزواجِه-: إنا لَنَكرَهُ الموتَ قال: ليس ذلك، ولكنَّ المؤمنَ إذا حضرَهُ الموتُ بُشِّرَ برضوانِ الله وكرامَته، فليس شيءٌ أحبَّ إليه مما أمامه، فأحبَّ لقاءَ الله وأحبَّ اللهُ لقاءَه. وإنَّ الكافرَ إذا حُضرَ بشرَ بعذابِ الله وعُقوبتهِ، فليس شيءٌ أكرَهَ إليه مما أمامَهُ، فكَرِهَ لقاءَ الله وكرهَ اللهُ لقاءه».

٦٥٠٨ ـ عن أبي موسى عن النبيِّ ﷺ قال: «من أحبَّ لقاء اللهِ أحب اللهُ لقاءه، ومن كرِهَ لقاءَ اللهِ كرهَ اللهُ لقاءه».

٦٥٠٩ ـ عن عائشة زَوجِ النبيِّ ﷺ قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يقول وهو صحيحٌ: إنه لم يُقبض نبيٌّ قط حتى يرى مَقعدَهُ من الجنَّة ثم يُخيَّر، فلما نَزَل به ورأسه على فخذي غُشيَ عليه ساعةً ثم أفاق، فأشخَصَ بَصرَه إلى السَّقفِ ثم قال: اللهم الرفيقَ الأعلى. قلتُ: إذاً لا يَختارُنا، وعرَفتُ أنه الحديثُ الذي كان يحدِّثنا به. قالت: فكانت تلك آخرَ كلمةٍ تكلمَ بها النبيُّ ﷺ قوله: اللَّهمَّ الرفيقَ الأعلى».

قوله (باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه) قال العلماء: محبة الله لعبده إرادته الخير له وهدايته إليه وإنعامه عليه[١]، وكراهته له على الضد من ذلك.

قوله (فليس شيء أحب إليه مما أمامه) أي مايستقبله بعد الموت وقال ابن الأثير في النهاية: المراد بلقاء الله هنا المصير إلى الدار الآخرة وطلب ما عند الله، وليس الغرض به الموت لأن كلا يكرهه، فمن ترك الدنيا وأبغضها أحب لقاء الله ومن آثرها وركن إليها كره لقاء الله لأنه إنما يصل إليه بالموت، وقد سبق ابن الأثير إلى تأويل لقاء الله بغير الموت الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام فقال: ليس وجهه عندي كراهة الموت وشدته لأن هذا لا يكاد يخلو عنه أحد، ولكن المذموم من ذلك إيثار الدنيا والركون إليها وكراهية أن يصير إلى الله والدار الآخرة.

قال: ومما يبين ذلك أن الله تعالى عاب قوماً بحب الحياة فقال: {إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها}.

وقال النووي: معنى الحديث أن المحبة والكراهة التي تعتبر شرعاً هي التي تقع عند النزع في الحالة التي لا تقبل فيها التوبة حيث ينكشف الحال للمحتضر ويظهر له ما هو صائر إليه.

(١) الصحيح إثبات صفة المحبة من الله عز وجل لعباده المؤمنين، وأما قوله أنها إرادته الخير له فإنه ضرب من التعطيل وهو مخالف لما كان عليه السلف الصالح من إجراء الصفات على ظاهرها

وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم:

- البداءة بأهل الخير في الذكر لشرفهم وإن كان أهل الشر أكثر.
- وفيه أن المجازاة من جنس العمل فإنه قابل المحبة بالمحبة والكراهة بالكراهة.
- وفيه أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة، وفيه نظر فإن اللقاء أعم من الرؤية.
- وفيه أن المعتفر إذا ظهرت عليه علامات السرور كان ذلك دليلاً على أنه بشر بالخير وكذا بالعكس.
- وفيه أن محبة لقاء الله لا تدخل في النهي عن تمني الموت لأنها ممكنة مع عدم تمني الموت كأن تكون المحبة حاصلة لا يفترق حاله فيه بحصول الموت ولا بتأخره، وأن النهي عن تمني الموت محمول على حالة الحياة المستمرة، وأما عند الاحتضار والمعاينة فلا تدخل تحت النهي بل هي مستحبة.
- وفيه أن في كراهة الموت في حال الصحة تفصيلاً، فمن كرهه إيثاراً للحياة على ما بعد الموت من نعيم الآخرة كان مذموماً.

ومن كرهه خشية أن يفضي إلى المؤاخذة كأن يكون مقصراً في العمل لم يستعد له بالأهبة بأن يتخلص من التبعات ويقوم بأمر الله كما يجب فهو معذور، لكن ينبغي لمن وجد ذلك أن يبادر إلى أخذ الأهبة حتّى إذا حضره الموت لا يكرهه بل يحبه لما يرجو بعده من لقاء الله تعالى.

- وفيه أن الله تعالى لا يراه في الدنيا أحد من الأحياء وإنما يقع ذلك للمؤمنين بعد الموت.

٤٢ ـ باب سَكَرَاتِ الموت

٦٥١٠ ـ عن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: «أن رسولَ الله ﷺ كان بين يدَيه ركوةٌ -أو علبةٌ فيها ماء، يَشك عمرُ- فجعل يُدخلُ يَده في الماء فيمسَحُ بها وجهَهُ ويقول: لا إلهَ إلا الله، إن للموتِ سَكرات. ثم نَصبَ يدَه فجعلَ يقول: في الرفيق الأعلى. حتى قُبِضَ ومالت يدُه».

٦٥١١ ـ عن عائشة قالت: «كان رجالٌ منَ الأعرابِ جُفاةً يأتونَ النبيَّ ﷺ فيسألونه: متى الساعة؟ فكان يَنظرُ إلى أصغرهم فيقول: أن يَعش هذا لا يدرِكه الهرمُ حتى تقومَ عليكم ساعتكم». قال هشام: يعني موتهم».

٦٥١٢ ـ عن أبي قَتادةَ بن ربعيٍ الأنصاريِّ أنَّ رسولَ الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازةٍ فقال: «مُستريح ومُستراحٌ منه. قالوا: يا رسولَ الله، ما المستريحُ والمستراح منه، قال العبدُ

المؤمنُ يستريحُ من نصبِ الدنيا وأذاها إلى رحمةِ الله عز وجل، والعبدُ الفاجرُ يَستريحُ منه العبادُ والبلادُ والشجرُ والدوابُّ».

[الحديث ٦٥١٢ - طرفه في: ٦٥١٣]

٦٥١٣ - عن أبي قَتادةَ «عنِ النبيِّ ﷺ قال: «مُستريحٌ ومُستراحٌ منه، المؤمن يَستريح».

٦٥١٤ - عن أنسِ بنِ مالكٍ قال: «قال رسول الله ﷺ: يَتبعُ الميت ثلاثةٌ، فيرجعُ اثنانِ ويبقى معهُ واحد، يتبعهُ أهلهُ ومالهُ وعمله، فيرجعُ أهلهُ ومالهُ، ويبقى عملُهُ».

٦٥١٥ - عنِ ابن عمرَ رضيَ الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا ماتَ أحدُكم عُرِضَ عليه مَقعدُه غدوةً وعَشياً: إما النار وإما الجنة، فيقالُ: هذا مَقعدكَ حتى تُبعَثَ إليه».

٦٥١٦ - عن عائشةَ قالت: قال النبي ﷺ: «لا تَسبوا الأمواتَ، فإنهم قد أفضَوا إلى ما قدَّموا».

قوله (باب سكرات الموت) جمع سكرة، قال الراغب وغيره: السكر حالة تعرض بين المرء وعقله، وأكثر ما تستعمل في الشراب المسكر، ويطلق في الغضب والعشق والألم والنعاس والغشي الناشيء عن الألم وهو المراد هنا، وفي الحديث أن شدة الموت لا تدل على نقص في المرتبة بل هي للمؤمن إما زيادة في حسناته وإما تكفير لسيآته، وبهذا التقرير تظهر مناسبة أحاديث الباب للترجمة.

قوله (حتى تقوم عليكم ساعتكم) وفي حديث أنس «حتى تقوم الساعة» قال عياض: حديث عائشة هذا يفسر حديث أنس وأن المراد ساعة المخاطبين، وهو نظير قوله «أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها الآن أحد» وقد تقدم بيانه في كتاب العلم وأن المراد انقراض ذلك القرن وأن من كان في زمن النبي ﷺ إذا مضت مائة سنة من وقت تلك المقالة لا يبقى منهم أحد، ووقع الأمر كذلك، فإن آخر من بقي ممن رأى النبيَّ ﷺ أبو الطفيل عامر بن واثله كما جزم به مسلم وغيره وكانت وفاته سنة عشر ومائة من الهجرة وذلك عند رأس مائة سنة من وقت تلك المقالة.

وقال الكرماني: هذا الجواب من الأسلوب الحكيم، أي دعوا السؤال عن وقت القيامة الكبرى فإنها لا يعلمها إلا الله واسألوا عن الوقت الذي يقع فيه انقراض عصركم فهو أولى لكم لأن معرفتكم به تبعثكم، على ملازمة العمل الصالح قبل فوته، لأن أحدكم لا يدري من الذي يسبق الآخر.

قوله (من نصب الدنيا وأذاها) والنصب هو التعب وزنه ومعناه، قال ابن التين: يحتمل أن يريد بالمؤمن التقي خاصة، ويحتمل كل مؤمن. والفاجر يحتمل أن يريد به الكافر ويحتمل أن يدخل فيه العاصي.

وقال الداودي: أما استراحة العباد فلما يأتي به من المنكر فإن أنكروا عليه آذاهم وإن تركوه أثموا واستراحة البلاد مما يأتي به من المعاصي فإن ذلك مما يحصل به الجدب فيقتضي هلاك الحرث والنسل.

قوله (مستريح ومستراح منه المؤمن يستريح) تنبيه: مناسبة دخول هذا الحديث في الترجمة أنَّ الميت لا يعدو أحد القسمين إما مستريح وإما مستراح منه وكل منهما يجوز أن يشدد عليه عند الموت وأن يخفف، والأول هو الذي يحصل سكرات الموت، ولا يتعلق ذلك بتقواه ولا بفجوره بل أن كان من أهل التقوى ازداد ثوباً له وإلا فيكفر عنه بقدر ذلك ثم يستريح من أذى الدنيا الذي هذا خاتمته، ويؤيد ذلك ما تقدم من كلام عائشة في الحديث الأول، وقد قال عمر بن عبد العزيز: ما أحب أن يهون عليَّ سكرات الموت، إنه لآخر ما يكفر به عن المؤمن، ومع ذلك فالذي يحصل للمؤمن من البشرى ومسرة الملائكة بلقائه ورفقهم به وفرحه بلقاء ربه يهون عليه كل ما يحصل له من ألم الموت حتى يصير كأنه لا يحس بشيء من ذلك.

قوله (يتبعه أهله وماله وعمله) هذا يقع في الأغلب، ورب ميت لا يتبعه إلا عمله فقط، والمراد من يتبع جنازته من أهله رفقته ودوابه على ما جرت به عادة العرب، وإذا انقضى أمر الحزن عليه رجعوا سواء أقاموا بعد الدفن أم لا، ومعنى بقاء عمله أنه يدخل معه القبر.

قوله (إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده) وهذا العرض يقع على الروح حقيقة وعلى ما يتصل به من البدن الاتصال الذي يمكن به إدراك التنعيم أو التعذيب على ما تقدم تقريره، وأبدى القرطبي في ذلك احتمالين: هل هو على الروح فقط، أو عليها وعلى جزء من البدن؟ وحكى ابن بطال عن بعض أهل بلدهم: أن المراد بالعرض هنا الإخبار بأن هذا موضع جزائكم على أعمالكم عند الله، وأريد بالتكرير تذكارهم بذلك، واحتج بأن الأجساد تفنى والعرض لا يقع على شيء فانٍ قال: فبان أن العرض الذي يدوم إلى يوم القيامة إنما هو على الأرواح خاصة، وتعقب بأن حمل العرض على الإخبار عدول عن الظاهر بغير مقتض لذلك، ولا يجوز العدول إلا بصارف يصرفه عن الظاهر.

قلت: ويؤيد الحمل على الظاهر أن الخبر ورد على العموم في المؤمن والكافر، فلو اختص بالروح لم يكن للشهيد في ذلك كبير فائدة لأن روحه منعمة جزماً كما في الأحاديث الصحيحة، وكذا روح الكافر معذبة في النار جزماً، فإذا حمل على الروح التي لها اتصال بالبدن ظهرت فائدة ذلك في حق الشهيد وفي حق الكافر أيضاً.

٤٢ ـ باب نفخ الصُّور

قال مجاهدٌ: الصُّور كهيئةِ البوق. {زَجرةٌ} /الصافات:١٩/: صَيحة.

وقال ابنُ عباس: {الناقور} /المدثر:٨/: الصور. {الراجفةُ} /النازعات:٦/: النَّفخةُ الأولى. {والرادفة} /النازعات:٧/: النفخةُ الثانية

٦٥١٧ ـ عن أبي هريرةَ قال: «استبَّ رجلانِ رجلٌ من المسلمينَ ورجل منَ اليهودِ فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين. قال فغضبَ المسلم عند ذلك فَلَطم وجهَ اليهودي، فذهبَ اليهوديُّ إلى رسول الله ﷺ فأخبرَهُ بما كان من أمره وأمر المسلم، فقال رسول الله ﷺ: لا تخيروني على موسى، فإنَّ الناسَ يَصعقونَ يوم القيامة فأكونُ أولَ من يُفيق، فإذا موسى باطِش بجانب العَرش، فلا أدري أكان موسى فيمن صَعِق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله عزَ وجل».

٦٥١٨ ـ عن أبي هريرةَ قال: قال النبيُّ ﷺ: «يصعقُ الناس حينَ يصعقون، فأكون أول مَن قام، فإذا موسى آخذ بالعرش، فما أدري أكانَ فيمن صعقَ».

قوله (باب نفخ الصور) تكرر ذكره في القرآن في الأنعام والمؤمنين والنمل والزمر وق وغيرها، وثبت كذلك في القراآت المشهورة والأحاديث، وذكر عن الحسن البصري أنَّه قرأها بفتح الواو جمع صورة وتأوله على أن المراد النفخ في الأجساد لتعاد إليها الأرواح، وقال أبو عبيدة في «المجاز»: يقال الصور يعني بسكون الواو جمع صورة كما يقال سور المدينة جمع سورة، وحكى مثله الطبري عن قوم وزاد: كالصوف جمع صوفة، قالوا: والمراد النفخ في الصور وهي الأجساد لتعاد فيها الأرواح كما قال تعالى: {ونفخت فيه من روحي} وبالغ النحاس وغيره في الرد على التأويل، وقال الأزهري: أنه خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة، قلت: وقد أخرج أبو الشيخ في «كتاب العظمة» من طريق وهب بن منبه من قوله قال: خلق الله الصور من لؤلؤة بيضاء في صفاء الزجاجة،ثم قال للعرش: خذ الصور فتعلق به.

ثم قال: كن، فكان إسرافيل، فأمره أن يأخذ الصور، فأخذه وبه ثقب بعدد كل روح مخلوقة ونفس منفوسة، فذكر الحديث وفيه ثم تجمع الأرواح كلها في الصور، ثم يأمر الله إسرافيل فينفخ فيه فتدخل كل روح في جسدها، فعلى هذا فالنفخ يقع في الصور أولاً ليصل النفخ بالروح إلى الصور وهي الأجساد، فإضافة النفخ إلى الصور الذي هو القرن حقيقة، وإلى الصور التي هي الأجساد مجاز.

قوله (قال مجاهد الصور كهيئة البوق) وقال صاحب الصحاح: البوق الذي يزمر به وهو معروف، ويقال للباطل، يعني يطلق ذلك عليه مجازاً لكونه من جنس الباطل.

تنبيه: لا يلزم من كون الشيء مذموماً أن لا يشبه به الممدوح، فقد وقع تشبيه صوت

الوحي بصلصلة الجرس مع النهي عن استصحاب الجرس كما تقدم تقريره في بدء الوحي، والصور إنما هو قرن كما جاء في الأحاديث المرفوعة، وقد وقع في قصة بدء الآذان بلفظ البوق والقرن في الآلة التي يستعملها اليهود للآذان، ويقال إن الصور اسم القرن بلغة أهل اليمن، وأخرج أبوداود والترمذي وحسنه والنسائي وصححه ابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «جاء أعرابي إلى النبيِّ ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: قرن ينفخ فيه» «والترمذي أيضاً وحسنه من حديث أبي سعيد مرفوعاً «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن، واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ».

٤٤ ـ باب يَقبض الله الأرض يوم القيامة

رواه نافع عن ابن عمرَ عن النبيِّ ﷺ

٦٥١٩ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يَقبض الله الأرضَ ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أينَ ملوك الأرض؟».

٦٥٢٠ ـ عن أبي سعيد الخُدري قال قال النبي ﷺ: «تكون الأرض يومَ القيامةِ خُبزةً واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يَكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة. فأتى رجل منَ اليهود فقال: باركَ الرحمن عليكَ يا أبا القاسم ألا أخبرك بنُزُل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: بلى. قال: تكون الأرض خُبزةً واحدةً كما قال النبيُّ ﷺ: فنظرَ النبيُّ ﷺ إلينا ثمَّ ضحكَ حتى بَدَت نواجذه، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالام ونُون. قالوا: وما هذا؟ قال: ثورٌ ونُون، يأكلُ من زائدةِ كبِدهما سبعونَ ألفاً».

٦٥٢١ ـ عن سهل بن سعد قال: «سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عفراء كقُرصةِ النقيِّ. قال: سهلٌ -أو غيرهُ- ليس فيها مَعلمٌ لأحد».

قوله (يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه) زاد في رواية ابن وهب عن يونس «يوم القيامة» قال عياض: هذا الحديث جاء في الصحيح على ثلاثة ألفاظ: القبض، والطي، والأخذ. وكلها بمعنى الجمع، فإن السماوات مبسوطة والأرض مدحوة ممدودة، ثم رجع ذلك إلى معنى الرفع والإزالة والتبديل، فعاد ذلك إلى ضم بعضها إلى بعض وإبادتها، فهو تمثيل لصفة قبض هذه المخلوقات وجمعها بعد بسطها وتفرقها دلالة على المقبوض والمبسوط لا على البسط والقبض، وقد يحتمل أن يكون إشارة إلى الاستيعاب انتهى. وسيأتي مزيد بيان لذلك في كتاب التوحيد(١) إن شاء الله تعالى.

قوله (تكون الأرض يوم القيامة) يعني أرض الدنيا (خُبزة) قال الخطابي: الخبزة الطلمة بضم المهملة وسكون اللام وهو عجين يوضع في الحفرة بعد إيقاد النار فيها.

---

(١) كتاب التوحيد باب / ٦ ح ٧٣٨٢ - ٥ / ٥٤٦

قوله (يتكفؤها الجبار) أي يميلها.

قوله (نزلاً لأهل الجنة) ما يقدم للضيف وللعسكر، يطلق على الرزق وعلى الفضل ويقال أصلح للقوم نزلهم أي ما يصلح أن ينزلوا عليه من الغذاء وعلى ما يعجل للضيف قبل الطعام وهو اللائق هنا .

قوله (فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك) يريد أنه أعجبه إخبار اليهودي عن كتابهم بنظير ما أخبر به من جهة الوحي، وكان يعجبه موافقة أهل الكتاب فيما لم ينزل عليه فكيف بموافقتهم فيما أنزل عليه.

قوله (حتى بدت نواجذه) جمع ناجذة وهو آخر الأضراس.

قوله (بإدامهم) أي ما يؤكل به الخبز

قوله (قال ثور ونون) قال الخطابي: فأما نون فهو الحوت على ما فسر في الحديث، وأما بالام فدل التفسير من اليهودي على أنه اسم للثور.

وقال عياض: وأولى ما يقال في هذا أن تبقى الكلمة على ما وقع في الرواية ويحمل على أنها عبرانية.

و جزم النووي بهذا فقال: هي لفظة عبرانية معناها ثور.

قوله (يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً) قال عياض: زيادة الكبد وزائدتها هي القطعة المنفردة المتعلقة بها وهي أطيبه ولهذا خص بأكلها السبعون ألفاً ولعلهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب فضلوا بأطيب النزل، ويحتمل أن يكون عبر بالسبعين عن العدد الكثير ولم يرد الحصر فيها، وقد تقدم في أبواب الهجرة قبيل المغازي في مسائل عبد الله بن سلام أن أول طعام يأكله أهل الجنة زيادة كبد الحوت، وأن عند مسلم في حديث ثوبان «تحفة أهل الجنة زيادة كبد النون» وفيه «غذاؤهم على أثرها أن ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها» وفيه «وشرابهم عليه من عين تسمى سلسبيلا».

قوله (أرض[1] عفراء) قال الخطابي: العفر بياض ليس بالناصع.

قوله (كقرصة النقي) أي الدقيق النقي من الغش والنخال قاله الخطابي.

قوله (قال سهل أو غيره ليس فيها مَعْلَم لأحد) والعلم والمعلم بمعنى واحد، قال الخطابي: يريد أنها مستوية. والمعلَم: هو الشيء الذي يستدل به على الطريق.

وقال عياض: المراد أنها ليس فيها علامة سكنى ولا بناء ولا أثر ولا شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة.

وفيه تعريض بأرض الدنيا وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها.

(١) رواية الباب واليونينية أرض بيضاء عفراء

وقال الداودي: المراد أنه لا يجوز أحد منها شيئاً إلا ما أدرك منها. وقال أبو محمد ابن أبي جمرة: فيه دليل على عظيم القدرة، والإعلام بجزئيات يوم القيامة ليكون السامع على بصيرة فيخلص نفسه من ذلك الهول لأن في معرفة جزئيات الشيء قبل وقوعه رياضة النفس وحملها على ما فيه خلاصها بخلاف مجيء الأمر بغتة، وفيه إشارة إلى أن أرض الموقف أكبر من هذه الأرض الموجودة جداً، والحكمة في الصفة المذكورة أن ذلك اليوم يوم عدل وظهور حق فاقتضت الحكمة أن يكون المحل الذي يقع فيه ذلك طاهراً عن عمل المعصية والظلم، وليكون تجليه سبحانه على عباده المؤمنين على أرض تليق بعظمته، ولأن الحكم فيه إنما يكون لله وحده فناسب أن يكون المحل خالصاً له وحده. انتهى ملخصاً.

وفيه إشارة إلى أن أرض الدنيا اضمحلت وأعدمت وأن أرض الموقف تجددت.

وقد وقع للسلف في ذلك خلاف في المراد بقوله تعالى: {يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات} هل معنى تبديلها تغير ذاتها وصفاتها أو تغيير صفاتها فقط، وحديث الباب يؤيد الأول.

٤٥ ـ باب الحَشْرِ

٦٥٢٢ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «يُحشَرُ الناسُ على ثلاثِ طرائقَ راغبينَ وراهبين، واثنان على بعير وثلاثةٌ على بعير وأربعة على بعير وعشرةٌ على بعير، ويَحشُرُ بقيَّتَهمُ النارُ تَقيلُ معهم حيث قالوا وتَبيتُ معهم حيثُ باتوا وتُصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسَوا».

٦٥٢٣ ـ عن أنس بن مالكٍ رضيَ الله عنه أن رجُلاً قال: «يا نبيَّ الله، كيف يُحشرُ الكافرُ على وَجهه؟ قال: أليسَ الذي أمشاهُ على الرجلينِ في الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وَجههِ يومَ القيامة؟» قال قَتادةُ: بلى وعزَّةِ ربِّنا.

٦٥٢٤ ـ عن ابن عباس سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنكم مُلاقوا اللهَ حُفاةً عُراةً مُشاةً غرلاً».

٦٥٢٥ ـ عن ابن عباس رضيَ الله عنهما قال: «سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَخطبُ على المنبرِ يقول: إنكم مُلاقو الله حفاةً عُراةً غُرلا».

٦٥٢٦ ـ عن ابن عباسٍ قال: قام فِينا النبيُّ ﷺ يَخطبُ فقال: «إنكم مَحشورونَ حفاةً عراةً غرلا {كما بدأنا أولَ خلق نُعيدُه} الآية. وإنَّ أول الخلائق يُكسى يومَ القيامةِ إبراهيمُ الخليل، وإنه سيُجاءُ برجالٍ من أمَّتي فيؤخذُ بهم ذاتَ الشمال، فأقول: ياربِّ أصحابي، فيقول: إنكَ لا تدري ما أحدَثوا بعدَك، فأقول كما قال العبدُ الصالح {وكنتُ عليهم شهيداً ما دُمتُ فيهم – إلى قوله– الحكيم} قال فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدِّينَ عَلَى أعقابهم».

٦٥٢٧ - عن عائشةَ رضيَ الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «تُحشَرونَ حُفاة عُراة غُرلاً. قالت عائشة رضيَ الله عنها: فقلتُ يا رسولَ الله، الرجالُ والنساء يَنظُرُ بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمرُ أشدُّ من أن يُهِمَّهم ذاك».

٦٥٢٨ - عن عبدِ الله قال: «كنا مع النبيِّ ﷺ في قُبَّة فقال: «أترضونَ أن تكونوا رُبعَ أهلِ الجنَّة؟ قلنا: نعم. قال: أترضونَ أن تكونوا ثلثَ أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: أترضونَ أن تكونوا شطرَ أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: والذي نفسُ محمد بيدِه، إني لأرجو أن تكونوا شطرَ أهلِ الجنة. وذلك أن الجنَّة لا يدخُلها إلا نفسٌ مسلمة، وما أنتم في أهلِ الشرك إلا كالشعرةِ البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشَّعرةِ السوداءِ في جلدِ الثور الأحمر».

[الحديث ٦٥٢٨ - طرفه في: ٦٦٤٢]

٦٥٢٩ - عن أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: أولُ من يُدعى يومَ القيامة آدمُ، فتراءَى ذرِّيته فيقال: هذا أبوكم آدمُ، فيقول: لَبَّيكَ وسعدَيك فيقول: أخرِج بَعثَ جهنم من ذرِّيتِك، فيقول: ياربِّ كم أخرج؟ فيقول أخرج من كل مائةٍ تسعة وتسعين، فقالوا: يا رسولَ الله، إذا أُخذَ منا من كلِّ مائة تسعةٌ وتسعون فماذا يَبقى منّا؟ قال: إنَّ أمتي في الأمم كالشَّعرة البيضاءِ في الثور الأسود».

قوله (باب الحشر) قال القرطبي الحشر الجمع وهو أربعة: حشران في الدنيا وحشران في الآخرة، فالذي في الدنيا أحدهما المذكور في سورة الحشر.

والثاني الحشر المذكور في أشراط الساعة الذي أخرجه مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رفعه «أن الساعة لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات» فذكره.

والحشر الثالث حشر الأموات من قبورهم وغيرها بعد البعث جميعاً إلى الموقف، قال الله عز وجل: {وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا} والرابع حشرهم إلى الجنة أو النار. انتهى ملخصاً بزيادات.

قلت: الأول ليس حشراً مستقلاً، فإن المراد حشر كل موجود يومئذ، والأول إنما وقع لفرقة مخصوصة.

قوله (تقيل معهم حيث قالوا الخ) فيه إشارة إلى ملازمة النار لهم إلى أن يصلوا إلى مكان الحشر. وهذه الطريقة الثالثة.

قال الخطابي: هذا الحشر يكون قبل قيام الساعة تحشر الناس أحياء إلى الشام.

وأما الحشر من القبور إلى الموقف فهو على خلاف هذه الصورة من الركوب على الإبل والتعاقب عليها، وإنما على ما ورد في حديث ابن عباس في الباب «حفاة عراة مشاة» .

ومال الحليمي إلى أن هذا الحشر يكون عند الخروج من القبور، وجزم به الغزالي.

وقال الإسماعيلي: ظاهر حديث أبي هريرة يخالف حديث ابن عباس المذكور بعد أنهم يحشرون حفاة عراة مشاة، قال: ويجمع بينهما بأن الحشر يعبر به عن النشر لاتصاله به وهو إخراج الخلق من القبور حفاة عراة فيساقون ويجمعون إلى الموقف للحساب، فحينئذ يحشر المتقون ركباناً على الإبل، وجمع غيره بأنهم يخرجون من القبور بالوصف الذي في حديث ابن عباس، ثم يفترق حالهم من ثم إلى الموقف على ما في حديث أبي هريرة، ويؤيده ما أخرجه أحمد والنسائي والبيهقي من حديث أبي ذر «حدثني الصادق المصدوق أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج: فوج طاعمين كاسين راكبين، وفوج يمشون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم».

قوله (إنكم ملاقو الله) أي في الموقف بعد البعث.

قوله (عراة) قال البيهقي: وقع في حديث أبي سعيد يعني الذي أخرجه أبو داود وصححه ابن حبان أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد فلبسها وقال: «سمعت النبي ﷺ يقول: إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها» ويجمع بينهما بأن بعضهم يحشر عارياً وبعضهم كاسياً، أو يحشرون كلهم عراة ثم يكسى الأنبياء، فأول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو يخرجون من القبور بالثياب التي ماتوا فيها ثم تتناثر عنهم عند ابتداء الحشر فيحشرون عراة ثم يكون أول من يكسى إبراهيم، وحمل بعضهم حديث أبي سعيد على الشهداء لأنهم الذين أمر أن يزملوا في ثيابهم ويدفنوا فيها، فيحتمل أن يكون أبو سعيد سمعه في الشهيد فحمله على العموم.

قوله (غرلا) جمع أغرل وهو الأقلف وزنه ومعناه وهو من بقيت غرلته وهي الجلدة التي يقطعها الخاتن من الذكر.

قوله (وأن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل) قال القرطبي في «شرح مسلم»: يجوز أن يراد بالخلائق من عدا نبينا ﷺ فلم يدخل هو في عموم خطاب نفسه، وتعقبه تلميذه القرطبي أيضاً في «التذكرة» فقال: هذا حسن لولا ما جاء من حديث علي يعني الذي أخرجه ابن المبارك في الزهد عن علي قال: «أول من يكسى يوم القيامة خليل الله عليه السلام قبطيتين، ثم يكسى محمد ﷺ حلة حبرة عن يمين العرش».

قلت: كذا أورده مختصراً موقوفاً.

قوله (وأنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال) أي إلى جهة النار.

قوله (قال فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم) قال الفربري ذكر عن أبي عبد

الله البخاري عن قبيصة قال: هم الذين ارتدوا على عهد أبي بكر فقاتلهم أبو بكر، يعني حتى قتلوا وماتوا على الكفر.

وقال الخطابي: لم يرتد من الصحابة أحد وإنما ارتد قوم من جفاة الأعراب ممن لا نصرة له في الدين، وذلك لا يوجب قدحاً في الصحابة المشهورين.

ويدل قوله «أصيحابي» بالتصغير على قلة عددهم.

وقال غيره: قيل هو على ظاهره من الكفر، والمراد بأمتي أمة الدعوة لا أمة الإجابة.

وقال ابن التين يحتمل أن يكونوا منافقين أو من مرتكبي الكبائر.

وقيل هم قوم من جفاة الأعراب دخلوا في الإسلام رغبة ورهبة.

وقال الداودي: لا يمتنع دخول أصحاب الكبائر والبدع في ذلك.

وقال النووي: قيل هم المنافقون والمرتدون فيجوز أن يحشروا بالغرة والتحجيل لكونهم من جملة الأمة فيناديهم من أجل السيما التي عليهم فيقال إنهم بدلوا بعدك، أي لم يموتوا على ظاهر ما فارقتهم عليه.

قال عياض وغيره: وعلى هذا فيذهب عنهم الغرة والتحجيل ويطفأ نورهم.

وقيل: لا يلزم أن تكون عليهم السيما بل يناديهم لما كان يعرف من إسلامهم، وقيل هم أصحاب الكبائر والبدع الذين ماتوا على الإسلام، وعلى هذا فلا يقطع بدخول هؤلاء النار لجواز أن يذادوا عن الحوض أولاً عقوبة لهم ثم يرحموا، ولا يمتنع أن يكون لهم غرة وتحجيل فعرفهم بالسيما سواء كانوا في زمنه أو بعده.

وقال البيضاوي ليس قوله «مرتدين» نصا في كونهم ارتدوا عن الإسلام بل يحتمل ذلك ويحتمل أن يراد أنهم عصاة المؤمنين المرتدون عن الاستقامة يبدلون الأعمال الصالحة بالسيئة انتهى.

٤٦ ـ باب قوله عزَّ وجل

{إن زَلْزَلَةَ الساعةِ شيءٌ عظيم}/الحج:١/. {أزِفَتِ الآزفة} /النجم:٥٧/. {اقتربَتِ الساعة} /القمر:١/.

٦٥٣٠ ـ عن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يقول اللهُ يا آدمُ، فيقول: لبَّيك وسَعدَيك، والخيرُ في يديك. قال يقول: أخرِج بَعثَ النار، قال: وما بعثُ النار؟ قال: مِن كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فذاكَ حين يشيبُ الصغير، وتَضعُ كلُّ ذاتِ حمل حملها، وترَى الناسَ سَكرَى وما هم بسكرى ولكنَّ عذاب الله شديد. فاشتدَّ ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله أينا ذلك الرجلُ؟. قال: أبشروا، فإن من يأجوجَ ومأجوجَ ألفاً ومنكم رجل. ثم قال:

والذي نفسي بيده، إني لأطمعُ أن تكونوا شطرَ أهلِ الجنة. إن مثَلكم في الأمم كمثل الشَّعرةِ البيضاء في جلد الثورِ الأسود، أو كالرَّقمةِ في ذِراع الحمار».

قوله (باب[١] إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم) الزلزلة الاضطراب، وأصله من الزلل، وفي تكرير الزاي فيه تنبيه على ذلك.

والساعة في الأصل جزء من الزمان، واستعيرت ليوم القيامة.

قوله (أزفت الآزفة اقتربت الساعة) هو من الأزف وهو القرب يقال أزف كذا أي قرب، وسميت الساعة آزفة لقربها أو لضيق وقتها، واتفق المفسرون على أن معنى أزفت اقتربت أو دنت.

قوله (أخرج بعث النار) البعث بمعنى المبعوث وأصلها في السرايا التي يبعثها الأمير إلى جهة من الجهات للحرب وغيرها، ومعناها هنا ميِّز أهل النار من غيرهم، وإنَّما خص بذلك آدم لكونه والد الجميع ولكونه كان قد عرف أهل السعادة من أهل الشقاء، فقد رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء وعن يمينه أسودة وعن شماله أسودة الحديث كما تقدم في حديث الإسراء.

قوله (قال وما بعث النار) أي وما مقدار مبعوث النار، وفي حديث أبي هريرة «فيقول يا رب كم أخرج».

قوله (فذاك حين يشيب الصغير وتضع، وساق إلى قوله قوله شديد) ظاهره أن ذلك يقع في الموقف، وقد استشكل بأن ذلك الوقت لا حمل فيه ولا وضع ولا شيب، ومن ثم قال بعض المفسرين إن ذلك قبل يوم القيامة، لكن الحديث يرد عليه، وأجاب الكرماني بأن ذلك وقع على سبيل التمثيل والتهويل، وسبق إلى ذلك النووي فقال: فيه وجهان للعلماء فذكرهما وقال: التقدير أن الحال ينتهي إلى أنه لو كانت النساء حينئذ حوامل لوضعت كما تقول العرب، «أصابنا أمر يشيب منه الوليد» وأقول يحتمل أن يحمل على حقيقته، فإن كان أحد يبعث على ما مات عليه فتبعث الحامل حاملاً والمرضع مرضعة والطفل طفلاً، فإذا وقعت زلزلة الساعة وقيل ذلك لآدم ورأى الناس آدم وسمعوا ما قيل له وقع بهم من الوجل ما يسقط معه الحمل ويشيب له الطفل وتذهل به المرضعة، ويحتمل أن يكون ذلك بعد النفخة الأولى وقبل النفخة الثانية ويكون خاصاً بالموجودين حينئذ وتكون الإشارة بقوله «فذاك» إلى يوم القيامة، وهو صريح في الآية، ولا يمنع من هذا الحمل ما يتخيل من طول المسافة بين قيام الساعة واستقرار الناس في الموقف ونداء آدم لتمييز أهل الموقف لأنه قد ثبت أن ذلك يقع متقارباً كما قال الله تعالى {فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة} يعني أرض الموقف، وقال تعالى: {يوما يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به} والحاصل أن يوم القيامة يطلق على ما بعد نفخة البعث من أهوال وزلزلة وغير ذلك إلى آخر الاستقرار في الجنة أو النار.

(١) رواية الباب واليونينية "باب قوله عز وجل "إن زلزلة" الخ

قوله (فاشتد ذلك عليهم) في حديث ابن عباس «فشق ذلك على القوم ووقع عليهم الكآبة والحزن» وفي حديث عمران عند الترمذي من رواية ابن جدعان عن الحسن «فأنشأ المؤمنون يبكون».

قوله (فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل) قال الطيبي: فيه إشارة إلى أن يأجوج ومأجوج داخلون في العدد المذكور والوعيد كما يدل قوله «ربع أهل الجنة» على أن في غير هذه الأمة أيضاً من أهل الجنة، وقال القرطبي: قوله «من يأجوج ومأجوج ألف» أي منهم وممن كان على الشرك مثلهم، وقوله «ومنكم رجل» يعني من أصحابه ومن كان مؤمناً مثلهم.

قلت: وحاصله أن الإشارة بقوله «منكم» إلى المسلمين من جميع الأمم، وقد أشار إلى ذلك في حديث ابن مسعود بقوله «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة».

٤٧ ـ باب قولِ الله تعالى

{ألايظنُّ أولئكَ أنهم مبعوثونَ ليوم عظيم. يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين} /المطففين: ٤ - ٦/ وقال ابن عباس {وتَقطَّعَت بهمُ الأسباب} /البقرة: ١٦٦/ قال: الوُصُلاتُ في الدنيا.

٦٥٣١ ـ عن ابن عمرَ رضيَ الله عنهما عنِ النبيِّ ﷺ {يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين} قال: «يقوم أحدُهم في رَشحهِ إلى أنصافِ أُذنَيه».

٦٥٣٢ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يعرَق الناسُ يومَ القيامةِ حتى يذهَبَ عَرَقهم في الأرض سَبعين ذِراعاً، ويُلجمهم حتى يَبلغَ آذانهم».

قوله (قال ابن عباس: {وتقطعت بهم الأسباب} قال: الوُصُلاتُ في الدنيا) وقال أبو عبيدة: الأسباب هي الوصلات التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا واحدتها وصلة.

قوله (يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم العرق حتى يبلغ آذانهم) قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: ظاهر الحديث تعميم الناس بذلك، ولكن دلت الأحاديث الأخرى على أنه مخصوص بالبعض وهم الأكثر، ويستثنى الأنبياء والشهداء ومن شاء الله، فأشدهم في العرق الكفار ثم أصحاب الكبائر ثم من بعدهم والمسلمون منهم قليل بالنسبة إلى الكفار كما تقدم تقريره في حديث بعث النار(١)، قال:والظاهر أن المراد بالذراع في الحديث المتعارف، وقيل هو الذراع الملكي، ومن تأمل الحالة المذكورة عرف عظم الهول فيها، وذلك أن النار تحف بأرض الموقف وتدنى الشمس من الرءوس قدر ميل، فكيف تكون حرارة تلك الأرض وماذا يرويها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعاً مع أن كل واحد لا يجد إلا قدر موضع قدمه، فكيف تكون حالة هؤلاء في عرقهم مع تنوعهم فيه، إن هذا

(١) كتاب الرقاق باب / ٤٦ ح ٦٥٣٠ - ٥ / ٦٦]

لما يبهر العقول ويدل على عظيم القدرة ويقتضي الإيمان بأمور الآخرة أن ليس للعقل فيها مجال، ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس ولا عادة، وإنما يؤخذ بالقبول ويدخل تحت الإيمان بالغيب، ومن توقف في ذلك دل على خسرانه وحرمانه.

وفائدة الإخبار بذلك أن يتنبه السامع فيأخذ في الأسباب التي تخلصه من تلك الأهوال، ويبادر إلى التوبة من التبعات، ويلجأ إلى الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة، ويتضرع إليه في سلامته من دار الهوان، وإدخاله دار الكرامة بمنه وكرمه.

٤٨ ـ باب القِصاص يوم القيامة، وهيَ الحاقة لأن فيها الثوابَ وحَواقَّ الأمور

الحقّة والحاقّة واحد، والقارعة والغاشية والصاخة. والتغابن غبنُ أهلِ الجنةِ أهلَ النار

٦٥٣٣ ـ عن عبدَ الله رضيَ الله عنه قال النبيُّ ﷺ: أول ما يقضى بينَ الناس في الدماء».

[الحديث ٦٥٣٣ - طرفه في: ٦٨٦٤]

٦٥٣٤ ـ عن أبي هريرةَ أن رسولَ الله ﷺ قال: «من كانت عندَه مَظلمةٌ لأخيهِ فليَتحللهُ منها، فإنه ليس ثمَّ دِينارٌ ولا دِرهم، من قبل أن يُؤخذ لأخيه من حسناتهِ، فإن لم يكن له حسَناتٌ أُخِذَ من سيِّئاتِ أخيه فطرُحَت عليه».

٦٥٣٥ ـ عن أبي سعيد الخدري رضيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَخلُصُ المؤمنونَ منَ النار، فيحبسون على قَنطرةٍ بينَ الجنَّةِ والنار، فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مَظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة. فو الذي نفسُ محمدٍ بيدِه لأحَدُهم أهدى بمنزِلهِ في الجنة منه بمنزلهِ كان في الدنيا».

قوله (باب القِصاص يوم القيامة) القِصاص مأخوذ من القص وهو القطع، أو من اقتصاص الأثر وهو تتبعه، لأن المقتص يتتبع جناية الجاني ليأخذ مثلها، يقال اقتص من غريمة واقتص الحاكم لفلان من فلان.

قوله (وهي الحاقة) الضمير للقيامة.

قوله (التغابن غبن أهل الجنة أهل النار) والسبب في ذلك أن أهل الجنة ينزلون منازل الأشقياء التي كانت أعدت لهم لو كانوا سعداء.

وقد اقتصر المصنف من أسماء يوم القيامة على هذا القدر، وجمعها الغزالي ثم القرطبي فبلغت نحو الثمانين اسماً، فمنها يوم الجمع ويوم الفزع الأكبر ويوم التناد ويوم الوعيد ويوم الحسرة ويوم التلاق ويوم المآب ويوم الفصل ويوم العرض على الله ويوم الخروج ويوم الخلود، ومنها يوم عظيم ويوم عسير ويوم مشهود ويوم عبوس قمطرير، ومنها يوم لا ينفع الظالمين

معذرتهم ويوم لا ينطقون ويوم لا ينفع مال ولا بنون ويوم لا يكتمون الله حديثاً ويوم لا مرد له من الله ويوم لا بيع فيه ولا خلال ويوم لا ريب فيه، فإذا ضمت هذه إلى ما ذكر في الأصل كانت أكثر من ثلاثين اسماً معظمها ورد في القرآن بلفظه، وسائر الأسماء المشار إليها أخذت بطريق الاشتقاق بما ورد منصوصاً كيوم الصدر من قوله {يومئذ يصدر الناس أشتاتاً} ويوم الجدال من قوله {يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها} ولو تتبع مثل هذا من القرآن زاد على ما ذكر والله أعلم.

قوله (أول ما يقضى بين الناس بالدماء[(١)]) وفي الحديث عظم أمر الدم، فإن البداءة إنما تكون بالأهم، والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة، وإعدام البنية الإنسانية غاية في ذلك.

وقد ورد في التغليظ في أمر القتل آيات كثيرة وآثار شهيرة يأتي بعضها في أول الديات.

قوله (ليس ثم دينار ولا درهم) في حديث ابن عمر رفعه «من مات وعليه دينار أو درهم قضي من حسناته» أخرجه ابن ماجه، وقد مضى شرحه في كتاب المظالم[(٢)]، والمراد بالحسنات الثواب عليها وبالسيآت العقاب عليها، وقد استشكل إعطاء الثواب وهو لا يتناهي في مقابلة العقاب وهو متناه، وأجيب بأنه محمول على أن الذي يعطاه صاحب الحق من أصل الثواب ما يوازي العقوبة عن السيئة وأما ما زاد على ذلك بفضل الله فإنه يبقى لصاحبه، قال البيهقي سيئات المؤمن على أصول أهل السنة متناهية الجزاء وحسناته غير متناهية الجزاء لأن من ثوابها الخلود في الجنة، فوجه الحديث عندي والله أعلم أنه يعطى خصماء المؤمن المسيء من أجر حسناته ما يوازي عقوبة سيآته فإن فنيت حسناته أخذ من خطايا خصومه فطرحت عليه ثم يعذب إن لم يعف عنه، فإذا انتهت عقوبة تلك الخطايا أدخل الجنة بما كتب له من الخلود فيها بإيمانه ولا يعطى خصماؤه مازاد من أجر حسناته على ما قابل عقوبة سيآته يعني من المضاعفة، لأن ذلك من فضل الله يختص به من وافى يوم القيامة مؤمنا والله أعلم.

٤٩ ـ باب مَن نُوقشَ الحسابَ عُذِّبَ

٦٥٣٦ ـ عن عائشةَ عن النبي ﷺ قال: «من نُوقشَ الحسابَ عُذِّب. قالت: قلتُ أليس يقولُ الله تعالى {فسوفَ يُحاسَبُ حساباً يسيرا} قال: ذلك العَرضُ».

٦٥٣٧ ـ عن عائشةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «ليسَ أحدٌ يحاسَب يوم القيامةِ إلا هَلك. فقلت: يا رسولَ الله، أليس قد قال الله تعالى {فأما من أوتيَ كتابه بيمينه فسوفَ يحاسَب

(١) رواية الباب [في الدماء] واليونينية توافق الشرح.
(٢) كتاب المظالم باب / ١٠ ح ٢٤٤٩ - ٢ / ٣٨٧]

حساباً يسيرا؟} فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرَض، وليس أحدٌ يناقَش الحسابَ يومَ القيامة إلا عُذِّب».

٦٥٣٨ ـ عن أنسٍ بن مالكٍ رضي الله عنه أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقول: «يُجاءُ بالكافر يومَ القيامةِ فيُقال له: أرأيتَ لو كان لك مِلءُ الأرض ذهباً أكنتَ تَفتدِي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد كنتَ سُئلتَ ما هو أيسَر من ذلك»

٦٥٣٩ ـ عن عديِّ بن حاتم قال: قال النبيُّ ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا وسيكلمهُ اللهُ يومَ القيامةِ ليس بينَ الله وبينَه ترجمان، ثم يَنظر فلا يَرى شيئاً قدامَه، ثمَّ يَنظرُ بينَ يدَيه فتستقبلهُ النار، فمن استطاعَ منكم أن يَتَّقي النارَ ولو بشقِّ تمرة».

٦٥٤٠ ـ عن عديٍّ بن حاتمٍ قال: قال النبيُّ ﷺ: اتقوا النار ثمَّ أعرض وأشاحَ ثم قال: اتقوا النار. ثمَّ أعرض وأشاحَ ثلاثاً حتى ظننا أنه يَنظرُ إليها. ثم قال: اتقوا النارَ ولو بِشقِّ تمرة، فمن لم يَجد فبِكلمةٍ طيِّبة».

قوله (باب من نوقش الحساب عذب) هو من النقش وهو استخراج الشوكة وتقدم بيانه في الجهاد، والمراد بالمناقشة الاستقصاء في المحاسبة والمطالبة بالجليل والحقير وترك المسامحة، يقال انتقشت منه حقي أي استقصيته.

قوله (قالت قلت: أليس يقول الله تعالى فسوف يحاسب) ولأحمد من وجه آخر عن عائشة «سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: اللهم حاسبني حساباً يسيرا، فلما انصرف قلت: يا رسول اله ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إن من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك».

قوله (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، ثم قال أخيراً: وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب) وكلاهما يرجعان إلى معنى واحد لأن المراد بالمحاسبة تحرير الحساب فيستلزم المناقشة ومن عذب فقد هلك، وقال القرطبي في «المفهم»: قوله «حوسب» أي حساب استقصاء وقوله «عذب» أي في النار جزاء على السيئات التي أظهرها حسابه، وقوله «هلك» أي بالعذاب في النار.

قال: وتمسكت عائشة بظاهر لفظ الحساب لأنه يتناول القليل والكثير.

قوله (إنما ذلك العرض) قال القرطبي: معنى قوله «إنما ذلك العرض» إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منة الله عليه في سترها عليه في الدنيا وفي عفوه عنها في الآخرة كما في حديث ابن عمر في النجوى، قال عياض: قوله «عذب» له معنيان أحدهما أن نفس مناقشة الحساب وعرض الذنوب والتوقيف على قبيح ما

سلف والتوبيخ تعذيب، والثاني أنه يفضي إلى استحقاق العذاب إذ لا حسنة للعبد إلا من عند الله لإقداره عليها وتفضله عليه بها وهدايته لها ولأن الخالص لوجهه قليل، ويؤيد هذا الثاني قوله في الرواية الأخرى «هلك».

وقال النووي: التأويل الثاني هو الصحيح لأن التقصير غالب على الناس، فمن استقصي عليه ولم يسامح هلك.

وقال غيره: وجه المعارضة أن لفظ الحديث عام في تعذيب كل من حوسب ولفظ الآية دال على أن بعضهم لا يعذب، وطريق الجمع أن المراد بالحساب في الآية العرض وهو إبراز الأعمال وإظهارها فيعرِّف صاحبها بذنوبه ثم يتجاوز عنه.

قوله (قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك) في رواية أبي عمران فيقول: «أردت منك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي» وفي رواية ثابت «قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار» قال عياض: يشير إلى قوله تعالى {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم[١]} الآية فهذا الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم، فمن وفى به بعد وجوده في الدنيا فهو مؤمن، ومن لم يوف به فهو الكافر، فمراد الحديث أردت منك حين أخذت الميثاق فأبيت إذ أخرجتك إلى الدنيا إلا الشرك.

ويحتمل أن يكون المراد بالإرادة هنا الطلب والمعنى أمرتك فلم تفعل، لأنه سبحانه وتعالى لا يكون في ملكه إلا ما يريد.

وقيل الإرادة تطلق بإزاء شيئين إرادة تقدير وإرادة رضا، والثانية أخص من الأولى والله أعلم.

وقال النووي: وفي الحديث من الفوائد جواز قول الإنسان يقول الله خلافاً لمن كره ذلك، وقال: إنما يجوز قال الله تعالى وهو قول شاذ مخالف لأقوال العلماء من السلف والخلف، وقد تظاهرت به الأحاديث.

وقال الله تعالى: {والله يقول الحق وهو يهدي السبيل}.

قوله (فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة) أي اجعلوا بينكم وبينها وقاية من الصدقة وعمل البر ولو بشيء يسير.

قوله (اتقوا النار ثم أعرض وأشاح) أي أظهر الحذر منها.

وحكى ابن التين أن معنى أشاح صد وانكمش، وقيل صرف وجهه كالخائف أن تناله.

قلت: والأول أوجه لأنه قد حصل من قوله أعرض.

قال ابن أبي جمرة: وفيه دليل على قبول الصدقة ولو قلت، وقد قيدت في الحديث

(١) قراءة حفص عن عاصم "..... ذريتهم"

بالكسب الطيب، وفيه إشارة إلى ترك احتقار القليل من الصدقة وغيرها.

وفيه حجة لأهل الزهد حيث قالوا: الملتفت هالك يؤخذ من أن نظر المذكور عن يمينه وعن شماله فيه صورة الالتفات فلذا لما نظر أمامه استقبلته النار، وفيه دليل على قرب النار من أهل الموقف، وقال ابن هبيرة المراد بالكلمة الطيبة هنا ما يدل على هدى أو يرد عن ردي أو يصلح بين اثنين أو يفصل بين متنازعين أو يحل مشكلاً أو يكشف غامضاً أو يدفع ثائراً أو يسكن غاضباً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

٥٠ ـ باب يدخُلُ الجنةَ سبعونَ ألفاً بغيرِ حساب

٦٥٤١ ـ عن ابن عباس قال: قال النبيُّ ﷺ: «عُرِضَت عليَّ الأمَمُ، فأخذَ النبيُّ يَمرُّ معه الأمّة، والنبي يمر معه النفر، والنبيُّ يمرُّ معه العشرةُ، والنبيُّ يمرُّ معه خمسة، والنبيُّ يمرُّ وحدَه، فنظرتُ فإذا سوادٌ كثير، قلت: يا جبريلُ هؤلاء أمّتي؟ قال: لا، ولكنِ انظر إلى الأفق، فنظرتُ فإذا سوادٌ كثير، قال: هؤلاء أمّتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامَهم لا حسابَ عليهم ولا عذاب. قلت: ولِمَ؟ قال: كانوا لا يَكتَوون، ولا يَسترقُون، ولا يتطيرون، وعلى ربِّهم يتوكلون. فقام إليه عُكاشة بن مِحصن فقال: ادعُ اللهَ أن يَجعلني منهم. قال: اللهمَّ اجعلهُ منهم. ثم قام إليه رجلٌ آخرُ فقال: ادع الله أن يَجعلني منهم قال: سَبقَكَ بها عكاشةُ».

٦٥٤٢ ـ عن أبي هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يدخلُ الجنةَ من أمتي زمرةٌ هم سبعونَ ألفاً تُضيءُ وجوهُهم إضاءة القمرِ ليلةَ البدر. وقال أبو هريرةَ. فقام عُكاشة بن مِحصن الأسديُّ يرفعُ نمرةً عليه فقال: يا رسول اللهَ ادعُ اللهَ أن يجعلني منهم، قال: اللهمَّ اجعَلهُ منهم. ثم قام رجلٌ منَ الأنصار فقال: يا رسول الله، ادعُ اللهَ أن يجعلني منهم، فقال: سبَقَكَ بها عُكاشة».

٦٥٤٣ ـ عن سهل بن سعدٍ قال: قال النبيُّ ﷺ: «ليَدخُلنَّ الجنة من أمتي سبعون ألفاً -أو سبعمائة ألفٍ، شكَّ في أحدهما- متماسكينَ، آخذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخُلَ أولهم وآخرهمُ الجنة ووجوههم على ضوء القمرِ ليلةَ البَدر».

٦٥٤٤ ـ عن ابن عمرَ رضيَ الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يدخلُ أهلُ الجنة الجنة وأهلُ النارِ النار، ثم يقومُ مؤذِّنٌ بينَهم: يا أهلَ النار لا مَوتَ، ويا أهل الجنةِ لا موتَ، خلود».

[الحديث ٦٥٤٤ - طرفه في: ٦٥٤٨]

٦٥٤٥ ـ عن أبي هريرةَ قال: قال النبيُّ ﷺ: «يقال لأهل الجنةِ يا أهل الجنة خُلود لا مَوت، ولأهل النار يا أهلَ النار خلود لا موت».

قوله (باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب) فيه إشارة إلى أن وراء التقسيم الذي تضمنته الآية المشار إليها في الباب الذي قبله أمراً آخر، وأن من المكلفين من لا يحاسب أصلاً، ومنهم من يحاسب حساباً يسيرا، ومنهم من يناقش الحساب.

قوله (يمر معه الأمة) أي العدد الكثير.

قوله (فنظرت فإذا سواد كثير) في رواية حصين بن نمير فرأيت سواداً كثيراً سدّ الأفق، والسواد ضد البياض هو الشخص الذي يرى من بعيد.

قوله (قلت يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا) في رواية حصين بن نمير «فرجوت أن تكون أمتي فقيل هذا موسى في قومه».

قوله (كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) ووقع في رواية سعيد بن منصور عند مسلم «ولا يرقون» بدل «ولا يكتوون» وقد أنكر الشيخ تقي الدين ابن تيمية هذه الرواية وزعم أنها غلط من راويها، واعتل بأن الراقي يحسن إلى الذي يرقيه فكيف يكون ذلك مطلوب الترك؟ وأيضاً فقد رقى جبريلُ النبيَّ ﷺ ورقى النبيُّ ﷺ أصحابه وأذن لهم في الرقى وقال: «من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل» والنفع مطلوب. قال: وأما المسترقي فإنه يسأل غيره ويرجو نفعه. وتمام التوكل ينافي ذلك.

قال: وإنما المراد وصف السبعين بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم ولا يتطيرون من شيء.

وأجاب غيره بأن الزيادة من الثقة مقبولة وسعيد بن منصور حافظ وقد اعتمده البخاري ومسلم واعتمد مسلم على روايته هذه وبأن تغليط الراوي مع إمكان تصحيح الزيادة لا يصار إليه.

والمعنى الذي حمله على التغليط موجود في المسترقي لأنه اعتل بأن الذي لا يطلب من غيره أن يرقيه تام للتوكل فكذا يقال له والذي يفعل غيره به ذلك ينبغي أن لا يمكنه منه لأجل تمام التوكل، وليس في وقوع ذلك من جبريل دلالة على المدعى ولا في فعل النبي ﷺ له أيضاً دلالة لأنه في مقام التشريع وتبيين الأحكام، ويمكن أن يقال إنما ترك المذكورون الرقي والاسترقاء حسما للمادة لأن فاعل ذلك لا يأمن أن يكل نفسه إليه وإلا فالرقية في ذاتها ليست ممنوعة وإنما منع منها ما كان شركاً أو احتمله ومن ثم قال ﷺ: «اعرضوا عليَّ رقاكم، ولا بأس بالرقي ما لم يكن شرك» ففيه إشارة إلى علة النهي كما تقدم تقرير ذلك واضحاً في كتاب الطب(١).

قوله (ولا يتطيرون) تقدم بيان الطيرة في كتاب الطب، والمراد أنهم لا يتشاءمون كما

(١) كتاب الطب باب / ٣٢ ح ٥٧٣٥ - ٤ / ٣٣٣]

كانوا يفعلون في الجاهلية.

قوله (وعلى ربهم يتوكلون) وقد مضى القول في التوكل في «باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه» قريباً.

وقال القرطبي وغيره: قالت طائفة من الصوفية لا يستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى، حتى لو هجم عليه الأسد لا ينزعج؛ وحتى لا يسعى في طلب الرزق لكون الله ضمنه له.

وأبى هذا الجمهور وقالوا: يحصل التوكل بأن يثق بوعد الله ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لا بد له منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح، وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح في توكله.

وقال أبو القاسم القشيري: التوكل محله القلب، وأما الحركة الظاهرة فلا تنافيه إذا تحقق العبد أن الكل من قبل الله، فإن تيسر شيء فبتيسيره وإن تعسر فبتقديره.

ومن الأدلة على مشروعية الاكتساب ما تقدم في البيوع من حديث أبي هريرة رفعه «أفضل ما أكل الرجل من كسبه، وكان داود يأكل من كسبه» فقد قال تعالى: {وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم} وقال تعالى: {وخذوا حذركم}.

قوله (فقام إليه عكاشة) كان عكاشة من السابقين إلى الإسلام وكنيته أبو محصن وهاجر وشهد بدراً وقاتل فيها، قال ابن إسحق بلغني أن النبي ﷺ قال: «خير فارس في العرب عكاشة» وقال أيضاً: قاتل يوم بدر قتالاً شديداً حتى انقطع سيفه في يده فأعطاه رسول الله ﷺ جزلاً من حطب فقال قاتل بهذا فقاتل به فصار في يده سيفاً طويلاً شديد المتن أبيض فقاتل به حتى فتح الله فكان ذلك السيف عنده حتى استشهد في قتال الردة مع خالد بن الوليد سنة اثنتي عشرة.

قوله (سبقك بها عكاشة) وقد اختلفت أجوبة العلماء في الحكمة في قوله «سبقك بها عكاشة» فأخرج ابن الجوزي في «كشف المشكل» من طريق أبي عمر الزاهد أنه سأل أبا العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب عن ذلك فقال: كان منافقاً.

وقال ابن بطال: معنى قوله «سبقك» أي إلى إحراز هذه الصفات وهي التوكل وعدم التطير وما ذكر معه، وعدل عن قوله «لست منهم أو لست على أخلاقهم» تلطفاً بأصحابه ﷺ وحسن أدبه معهم.

وقال ابن الجوزي: «يظهر لي أن الأول سأل عن صدق قلب فأجيب، وأما الثاني فيحتمل أن يكون أريد به حسم المادة، فلو قال للثاني: نعم لأوشك أن يقوم ثالث ورابع إلى مالا نهاية له وليس كل الناس يصلح لذلك».

وقال القرطبي: «لم يكن عند الثاني من تلك الأحوال ما كان عند عكاشة، فلذلك لم يجب إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل، فسد الباب بقوله ذلك، وهذا أولى من قول من قال كان منافقاً لوجهين: أحدهما أن الأصل في الصحابة عدم النفاق فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح، والثاني أنه قل أن يصدر مثل هذا السؤال إلا عن قصد صحيح ويقين بتصديق الرسول، وكيف يصدر ذلك من منافق؟ وإلى هذا جنح ابن تيمية.

وصحح النووي أن النبي ﷺ علم بالوحي أنه يجاب في عكاشة ولم يقع ذلك في حق الآخر.

قوله (يدخل الجنة من أمتي زمرة) هي الجماعة إذا كان بعضهم إثر بعض.

قوله (تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر) في رواية لمسلم «على صورة القمر» قال القرطبي: المراد بالصورة الصفة يعني أنهم في إشراق وجوههم على صفة القمر ليلة تمامه وهي ليلة أربعة عشر، ويؤخذ منه أن أنوار أهل الجنة تتفاوت بحسب درجاتهم.

قلت: وكذا صفاتهم في الجمال ونحوه.

قوله (يرفع نمرة عليه) هي كساء من صوف كالشملة مخططة بسواد وبياض يلبسها الأعراب.

٥١ ـ باب صفة الجنةِ والنار

وقال أبو سعيدٍ: قال النبيُّ ﷺ: «أولُ طعامٍ يأكله أهل الجنة زيادة كبدِ حُوت»

{عَدْنٌ}/التوبة:٧٢/ خُلد. عَدَنْتُ بأرض: أقمت. ومنه المعدِن. {في مقعد صدق} /القمر:٥٥/: في مَنبِت صدق

٦٥٤٦ ـ عن عِمرانَ عن النبيِّ ﷺ قال: «اطلعتُ في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعتُ في النار فرأيت أكثر أهلها النساء».

٦٥٤٧ ـ عن أسامة عنِ النبيِّ ﷺ قال: «قمتُ على باب الجنةِ فكان عامةُ من دخلها المساكينَ، وأصحابُ الجدِّ محبوسون، غير أنَّ أصحابَ النار قد أُمِرَ بهم إلى النار. وقمت على باب النار فإذا عامة مَن دخلها النساء».

٦٥٤٨ ـ عن ابن عمرَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا صار أهلُ الجنةِ إلى الجنة وأهلُ النار إلى النار جيء بالموت حتى يُجعَلَ بين الجنة والنار، ثم يُذبحُ، ثم يُنادي منادٍ: يا أهل الجنةِ لا موتَ، يا أهلَ النار لا موتَ، فيزدادُ أهلُ الجنةِ فرَحاً إلى فرَحهم، ويزدادُ أهل

النار حُزناً إلى حُزنهم».

٦٥٤٩ ـ عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن اللهَ تباركَ وتعالى يقولُ لأهلِ الجنة: يا أهل الجنة فيقولون لبيّكَ ربَّنا وسَعدَيك. فيقول: هلْ رَضيتُم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحداً من خَلقك. فيقول: أنا أعطيكم أفضلَ من ذلك قالوا: يا ربِّ وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعدَهُ أبداً».

[الحديث ٦٥٤٩ - طرفه في: ٧٥١٨]

٦٥٥٠ ـ عن أنسٍ يقول: أُصيبَ حارثةُ يومَ بدر -وهو غلامٌ- فجاءت أمُّه إلى النبيِّ ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفتَ منزلةَ حارثة مني، فإن يك في الجنة أصبرِ وأحتَسِب. وإن تَكن الأخرى ترَى ما أصنع؟ فقال: وَيحكِ -أو هَبلتِ- أو جنّة واحدة هي؟ إنها جِنان كثيرة، وإنهُ لفي جَنّةِ الفردَوس».

٦٥٥١ ـ عن أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «ما بينَ منكِبَي الكافرِ مسيرةُ ثلاثةِ أيام للراكب المسرع».

٦٥٥٢ ـ عن سهل بن سعد عن رسولِ الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنة لشجرةً يَسيرُ الراكبُ في ظلها مائة عام لا يقطعُها».

٦٥٥٣ ـ عن أبي سعيدٍ عنِ النبي ﷺ قال: «إن في الجنّةِ لشجرةً يَسيرُ الراكبُ الجوادَ أو المضمرَ السريعَ مائة عام وما يَقطعها».

٦٥٥٤ ـ عن أبي حازم عن سهلِ بن سعد أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لَيَدخلنَّ الجنة من أمتي سبعون -أو سبعمائةِ ألف، لا يَدري أبو حازم أيهما قال- مُتماسِكونَ آخذٌ بعضهم بعضا لا يدخُلُ أولُهم حتى يدخلَ آخِرُهم، وجوههم على صورةِ القمر ليلةَ البدر».

٦٥٥٥ ـ عن عبد العزيز عن أبيه عن سَهلٍ عنِ النبي ﷺ قال: «إن أهلَ الجنة ليَتراءَونَ الغُرَفَ في الجنة كما تَتَراءون الكوكبَ في السماء».

٦٥٥٦ ـ قال أبي: فحدَّثت النعمان بن أبي عياش فقال: أشهدُ لسمعتُ أبا سعيد يُحدِّثُ ويزيدُ فيه: كما تراءَون الكوكبَ الغارب في الأفق الشرقي والغربي.

٦٥٥٧ ـ عن أنسِ بن مالك رضيَ اللهُ عنه عنِ النبيِّ ﷺ قال: «يقولُ الله تعالى لأهونِ أهلِ النار عذاباً يومَ القيامة: لو أنَّ لكَ ما في الأرض من شيء أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقول: أردتُ منك أهوَنَ من هذا وأنت في صُلب آدمَ: أن لا تُشرِكَ بي شيئاً، فأبيتَ إلا أن تُشرِك بي».

٦٥٥٨ ـ عن جابر رضيَ اللهُ عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «يَخرُجُ منَ النار بالشفاعة كأنهم الثَّعارير. قلت: وما الثعاريرُ؟ قال: الضغابيس. وكان قد سقطَ فمهُ، فقلت لعمرِو ابن دِينار: أبا محمد سمعتَ جابرَ بن عبد الله يقول: «سمعت النبي ﷺ يقول: يخرج بالشفاعة من النار» قال: نعم.

٦٥٥٩ ـ عن أنسِ بن مالكٍ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «يخرُج قوم منَ النار بعدما مسَّهمُ منها سَفعٌ، فيدخُلون الجنة، فيُسمِّيهم أهلُ الجنة: الجهنميين».

[الحديث ٦٥٥٩ – طرفه في: ٧٤٥٠]

٦٥٦٠ ـ عن أبي سعيد الخُدري رضيَ الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا دَخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهل النار النارَ يقولُ الله: مَن كان في قلبه مِثقالُ حبة من خَردَل من إيمان فأخرِجوه، فيخرُجون قد امتُحِشوا وعادوا حُمَماً، فيُلقَونَ في نهرِ الحياة، فيَنبُتون كما تَنبُتُ الحبةُ في حَميلِ السيل، أو قال: حَميَّةِ السَّيل. وقال النبيُّ ﷺ: ألم ترَوا أنها تَنبُتُ صفراءَ مُلتوية؟».

٦٥٦١ ـ عن أبي إسحاقَ قال: «سمعتُ النُّعمانَ سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ أهوَنَ أهل النار عذاباً يومَ القيامة لرجُلٌ تُوضَعُ في أخمَص قدَميهِ جَمرةٌ يَغلي منها دِماغُه».

[الحديث ٦٥٦١ – طرفه في: ٦٥٦٢]

٦٥٦٢ ـ عن النعمان بن بشيرٍ قال سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ أهْوَن أهل النار عذاباً يومَ القيامةِ رجلٌ على أخمصِ قدَميه جمرتان يَغلي منهما دِماغه كما يَغلي المِرجَلُ بالقُمقم».

٦٥٦٣ ـ عن عَديِّ بن حاتم «أنَّ النبيَّ ﷺ ذكرَ النارَ فأشاحَ بوجهِهِ فتعوَّذ منها، ثم ذكرَ النارَ فأشاح بوَجهه فتعوَّذ منها ثم قال: اتقوا النارَ ولو بِشقِّ تمرة، فمن لم يجدِ فبكلمة طيِّبة».

٦٥٦٤ ـ عن أبي سعيدٍ الخُدَري رضيَ الله عنه أنه سمع رسولَ الله ﷺ وذُكرَ عنده عمُّه أبو طالب فقال: «لعله تنفعُهُ شفاعتي يوم القيامة. فيُجعَلُ في ضَحضاح من النار يبلُغُ كعبَيه يَغلِي منه أمُّ دماغه».

٦٥٦٥ ـ عن أنس رضيَ الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يجمع اللهُ الناسَ يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا على ربِّنا حتى يُريحَنا من مكاننا، فيأتون آدمَ فيقولون أنت الذي خلقكَ اللهُ بيده، ونفخَ فيك من رُوحه، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لك، فاشفع لنا عندَ ربنا. فيقول: لستُ هناكم، ويذكرُ خَطيئتَه، ويقول: ائتوا نوحاً أولَ رسول بعثَهُ الله. فيأتونَهُ، فيقول: لستُ هناكم ويذكرُ خطيئته، ائتوا إبراهيمَ الذي اتخذَهُ الله خليلاً. فيأتونَهُ، فيقول: لستُ هناكم، ويذكرَ خَطيئته ائتوا موسى الذي كلمهُ الله. فيأتونَهُ، فيقول: لستُ هناكم، فيذكرُ خطيئتَه، ائتوا عيسى. فيأتونهُ فيقول: لستُ هناكم. ائتوا محمداً ﷺ

فقد غُفرَ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبهِ وما تأخرَ». فيأتوني، فأستأذن على ربي، فإذا رأيتُهُ وقعتُ له ساجداً، فيَدَعُني ما شاءَ الله، ثم يُقال لي: ارفع رأسَكَ، وسَل تُعطه، وقل يُسمَع، واشفَع تُشفَّع. فأرفعُ رأسي فأحمدُ ربيَّ بتحميدٍ يعلِّمني، ثم أشفعَ فيُحدُّ لي حداً، ثمَّ أخرجُهم من النار وأدخِلُهم الجنة. ثم أعوُد فأقع ساجداً مثله في الثالثةِ أو الرابعة، حتى ما يبقى في النار إلا من حبسهُ القرآن».

٦٥٦٦ ـ عن عمرانَ بن حُصَين رضيَ اللهُ عنهما عنِ النبيِّ ﷺ قال: «يَخرُجُ قومٌ منَ النار بشفاعةِ محمدٍ ﷺ فيدخلونَ الجنة، يُسمَّونَ الجهنَّميين».

٦٥٦٧ ـ عن أنس أنَّ أمَّ حارثة أتَت رسولَ اللهِ ﷺ وقد هلكَ حارثةُ يومَ بَدر أصابَهُ سهمٌ غربٌ، فقالت: يارسولَ الله، قد علمتَ موقعَ حارثةَ من قلبي فإن كان في الجنة لم أبكِ عليه، وإلا سوف ترى ما أصنعُ. فقال لها: «هَبِلتِ، أجنَّةٌ واحدةٌ هيَ؟ إنها جِنانٌ كثيرة، وإنه في الفِردَوسِ الأعلى».

٦٥٦٨ ـ «وقال: غَدوةٌ في سبيلِ الله أو رَوحةٌ خيرٌ منَ الدنيا وما فيها، ولَقابُ قوس أحدِكم -أو موضع قدم- من الجنَّة خيرٌ منَ الدنيا وما فيها. ولو أنَّ امرأةً من نساء أهلِ الجنةِ اطَّلعَت إلى الأرضِ لأضاءت ما بينَهما، ولملأت ما بينهما رِيحاً، ولَنَصيفها -يعني الخِمارَ- خيرٌ من الدنيا وما فيها».

٦٥٦٩ ـ عن أبي هريرةَ قال: قال النبيُّ ﷺ: «لا يدخلُ أحدٌ الجنةَ إلا أُرِيَ مَقعدَهُ من النار لو أساءَ، ليزدادَ شكرا، ولا يدخلُ النارَ أحد إلاَّ أُرِيَ مَقعدَهُ من الجنةِ لو أحسنَ، ليكونَ عليه حسرة».

٦٥٧٠ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه أنه قال: «قلتُ يا رسولَ الله، مَن أسعد الناس بشفاعتِكَ يومَ القيامة؟ قال: لقد ظَننتُ يا أبا هريرةَ أن لا يَسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوَّلُ منك، لِما رأيتُ من حِرصكَ عَلَى الحديث، أسعدُ الناس بشفاعتي يومَ القيامة مَن قال لا إلهَ إلا الله خالصاً من قِبَلِ نفسه».

٦٥٧١ ـ عن عبدِ الله رضيَ الله عنه قال النبي ﷺ: «إني لأعلمُ آخرَ أهل النارِ خروجاً منها، وآخر أهلِ الجنة دخولاً: رجل يَخرُجُ من النار حَبواً، فيقولُ الله: إذهب فادخلِ الجنة، فيأتيها فيُخيَّل إليه أنها مَلأى، فيرجعُ فيقول: يا ربِّ وجدتها مَلأى، فيقول: اذهب فادخل الجنةَ، فيأتيها فيخيَّلُ إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا ربِّ وجدتها مَلأى. فيقول: اذهب فادخل الجنةَ، فإنَّ لكَ مثلَ الدنيا وعشرةَ أمثالها -أو إنَّ لك مثلَ عشرة أمثال الدنيا- فيقول: تسخَر مني، أو تَضحكُ مني وأنتَ الملك، فلقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضحكَ حتى بَدَت

نَواجذُه. وكان يقال: ذلك أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً».

[الحديث ٦٥٧١ - طرفه في: ٧٥١١]

٦٥٧٢ - عن العباس رضيَ الله عنه أنه قال للنبيِّ ﷺ: «هل نفعتَ أبا طالب بشيء؟».

قوله (بكفرهن[١]) أي بسبب كفرهن تقدم شرحه مستوفى في «باب كفران العشير» قال القرطبي إنما كان النساء أقل ساكني الجنة لما يغلب عليهن من الهوى، والميل إلى عاجل زينة الدنيا، والاعراض عن الآخرة لنقص عقلهن وسرعة انخداعهن.

قوله (أصحاب الجدّ) أي الغنى.

قوله (محبوسون) أي ممنوعون من دخول الجنة مع الفقراء من أجل المحاسبة على المال، وكان ذلك عند القنطرة التي يتقاصون فيها بعد الجواز على الصراط.

قوله (جيء بالموت) تقدم في تفسير سورة مريم من حديث أبي سعيد «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح» وذكر مقاتل والكلبي في تفسيرهما في قوله تعالى {الذي خلق الموت والحياة} قال: خلق الموت في صورة كبش لا يمر على أحد إلا مات، وخلق الحياة على صورة فرس لا يمر على شيء إلا حيي.

قال القرطبي: الحكمة في الإتيان بالموت هكذا الإشارة إلى أنهم حصل لهم الفداء به كما فدي ولد إبراهيم بالكبش.

قوله (حتى يجعل بين الجنة والنار) وقع للترمذي من حديث أبي هريرة «فيوقف على السور الذي بين الجنة والنار».

قوله (يا أهل الجنة لا موت) قال القاضي أبو بكر بن العربي: استشكل هذا الحديث لكونه يخالف صريح العقل لأن الموت عرض والعرض لا ينقلب جسماً فكيف يذبح؟ فأنكرت طائفة صحة هذا الحديث ودفعته، وتأولته طائفة فقالوا: هذا تمثيل ولا ذبح هناك حقيقة.

وقالت طائفة: بل الذبح على حقيقته والمذبوح متولي الموت وكلهم يعرفه لأنه الذي تولى قبض أرواحهم.

قلت: وارتضي هذا بعض المتأخرين وحمل قوله «هو الموت الذي وكل بنا» على أن المراد به ملك الموت لأنه هو الذي وكل بهم في الدنيا كما قال تعالى في سورة ألم السجدة، واستشهد له من حيث المعنى بأن ملك الموت لو استمر حياً لنغص عيش أهل الجنة.

وأيده بقوله في حديث الباب «فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم.

وقال القرطبي في التذكرة: الموت معنى والمعاني لا تنقلب جوهرا، وإنما يخلق الله

(١) ليس في رواية الباب ولا اليونينية "بكفرهن"

أشخاصاً من ثواب الأعمال، وكذا الموت يخلق الله كبشاً يسميه الموت ويلقى في قلوب الفريقين أن هذا الموت يكون ذبحه دليلاً على الخلود في الدارين.

وقال غيره: لا مانع أن ينشىء الله من الأعراض أجساداً يجعلها مادة لها كما ثبت في صحيح مسلم في حديث «أن البقرة وآل عمران يجيئان كأنهما غمامتان» ونحو ذلك من الأحاديث.

قال القرطبي: وفي هذه الأحاديث التصريح بأن خلود أهل النار فيها لا إلى غاية أمد، وإقامتهم فيها على الدوام بلا موت ولا حياة نافعة ولا راحة، كما قال تعالى: {لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها} وقال تعالى: {كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها} قال فمن زعم أنهم يخرجون منها وأنها تبقى خالية أو أنها تفيء وتزول هو خارج عن مقتضى ما جاء به الرسول وأجمع عليه أهل السنة.

قوله (أحِلُّ) أي أنزل.

قوله (رضواني) وفي حديث جابر قال: «رضواني أكبر» وفيه تلميح بقوله تعالى {ورضوان من الله أكبر} لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة، وكل من علم أن سيده راض عنه كان أقر لعينه وأطيب لقلبه من كل نعيم لما في ذلك من التعظيم والتكريم. وفي هذا الحديث أن النعيم الذي حصل لأهل الجنة لا مزيد عليه.

قوله (وأنه لفي جنة الفردوس) المراد به هنا مكان من الجنة من أفضلها.

قوله (منكبي الكافر) وهو مجتمع العضد والكتف.

قوله (مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع) ولابن المبارك في الزهد عن أبي هريرة قال: «ضرس الكافر يوم القيامة أعظم من أحد، يعظمون لتمتلىء منهم وليذوقوا العذاب» وسنده صحيح، ولم يصرح برفعه لكن له حكم الرفع لأنه لا مجال للرأي فيه، وقد أخرج أوله مسلم من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً وزاد «وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام» وأخرجه البزار من وجه ثالث عن أبي هريرة بسند صحيح بلفظ «غلظ جلد الكافر وكثافة جلده اثنان واربعون ذراعاً بذراع الجبار» وأخرجه البيهقي وقال: «أراد بذلك التهويل يعني بلفظ الجبار، قال: ويحتمل أن يريد جباراً من الجبابرة إشارة إلى عظم الذراع».

وفي مرسل عبيد بن عمير عند ابن المبارك في الزهد بسند صحيح «وكثافة جلده سبعون ذراعاً».

وكأن اختلاف هذه المقادير محمول على اختلاف تعذيب الكفار في النار.

وقال القرطبي في «المفهم»: إنما عظم خلق الكافر في النار ليعظم عذابه ويضاعف ألمه، ثم قال: وهذا إنما هو في حق البعض بدليل الحديث الآخر «أن المتكبرين يحشرون يوم القيامة

أمثال الذر في صور الرجال، يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس» قال ولا شك في أن الكفار متفاوتون في العذاب كما علم من الكتاب والسنة ولأنا نعلم على القطع أن عذاب من قتل الأنبياء وفتك في المسلمين وأفسد في الأرض ليس مساوياً لعذاب من كفر فقط وأحسن معاملة المسلمين مثلاً.

قوله (لا يقطعها) أي لا ينتهي إلى آخر ما يميل من أغصانها.

قوله (أو المضَمَّر) تقدم تفسيره في كتاب الجهاد(١).

قوله (الغرف) جاء في صفتها من حديث أبي مالك الأشعري مرفوعاً «أن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها» أخرجه الترمذي وابن حبان.

قوله (يخرج من النار بالشفاعة) قال ابن بطال: أنكر المعتزلة والخوارج الشفاعة في إخراج من أدخل النار من المذنبين وتمسكوا بقوله تعالى: {فما تنفعهم شفاعة الشافعين}. وغير ذلك من الآيات، وأجاب أهل السنة بأنها في الكفار، وجاءت الأحاديث في إثبات الشفاعة المحمدية متواترة ودل عليها قوله تعالى: {عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا} والجمهور على أن المراد به الشفاعة.

وقال الطبري: قال أكثر أهل التأويل المقام المحمود هو الذي يقومه النبي ﷺ ليريحهم من كرب الموقف، ثم أخرج عدة أحاديث في بعضها التصريح بذلك وفي بعضها مطلق الشفاعة، فمنها حديث سلمان قال: «فيشفعه الله في أمته فهو المقام المحمود».

قلت: الراجح أن المراد بالمقام المحمود الشفاعة، لكن الشفاعة التي وردت في الأحاديث المذكورة في المقام المحمود نوعان: الأول العامة في فصل القضاء، والثاني الشفاعة في إخراج المذنبين من النار.

وقال النووي تبعاً لعياض: الشفاعة خمس في الإراحة من هول الموقف وفي إدخال قوم الجنة بغير حساب، وفي إدخال قوم حوسبوا فاستحقوا العذاب أن لا يعذبوا، وفي إخراج من أدخل النار من العصاة. وفيه رفع الدرجات.

ودليل الأولى سيأتي التنبيه عليه في شرح الحديث السابع عشر.

ودليل الثانية قوله تعالى في جواب قوله ﷺ: «أمتي، أمتي، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليهم» كذا قيل، ويظهر لي أن دليله سؤاله ﷺ الزيادة على السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب فأجيب، وقد قدمت بيانه في شرح الحديث المذكور في الباب الذي قبله.

ودليل الثالثة قوله في حديث حذيفة عند مسلم «ونبيكم على الصراط يقول: رب سلم»

(١) كتاب الجهاد باب / ٥٨ ح ٢٨٧٠ - ٢ / ٥٨٥]

وله شواهد سأذكرها في شرح الحديث السابع عشر.

ودليل الرابعة ذكرته فيه أيضاً مبسوطاً.

ودليل الخامسة قوله في حديث أنس عند مسلم «أنا أول شفيع في الجنة» كذا قاله بعض من لقيناه وقال: وجه الدلالة منه أنه جعل الجنة ظرفاً لشفاعته.

قلت: وفيه نظر، لأني سأبين أنها ظرف في شفاعته الأولى المختصة به، والذي يطلب هنا أن يشفع لمن لم يبلغ عمله درجة عالية أن يبلغها بشفاعته.

وأشار النووي في «الروضة» إلى أن هذه الشفاعة من خصائصه مع أنه لم يذكر مستندها.

وأشار عياض إلى استدراك شفاعة سادسة وهي التخفيف عن أبي طالب في العذاب كما سيأتي بيانه في شرح الحديث الرابع عشر.

قوله (كأنهم الثعارير) واحدة ثعرور كعصفور.

قوله (قال الضغابيس) أما الثعارير فقال ابن الأعرابي: هي قثاء صغار.

وقال أبو عبيدة مثله وزاد ويقال بالشين المعجمة بدل المثلثة، وكأن هذا هو السبب في قول الراوي: وكان عمرو ذهب فمه -أي سقطت أسنانه- فنطق بها ثاء مثلثة وهي شين معجمة.

وأما الضغابيس فقال الأصمعي: شيء ينبت في أصول الثمام يشبه الهليون يسلق ثم يؤكل بالزيت والخل.

تنبيه: هذا التشبيه لصفتهم بعد أن ينبتوا، وأما أول خروجهم من النار فإنهم يكونون كالفحم كما سيأتي في الحديث الذي بعده.

قوله (أخمصَ) مالا يصل إلى الأرض هو باطن القدم عند المشي.

قوله (كما يغلي المرجل بالقمقم) والمِرجَل قِدْر من نحاس. والقمقم معروف من آنية العطار، ويقال هو إناء ضيق الرأس يسخن فيه الماء يكون من نحاس وغيره.

وقال عياض: «كما يغلي المرجل والقمقم».

قوله (لعله تنفعه شفاعتي) واستشكل قوله ﷺ تنفعه شفاعتي بقوله تعالى: {فما تنفعهم شفاعة الشافعين} وأجيب بأنه خص ولذلك عدوه في خصائص النبي ﷺ، وقيل معنى المنفعة في الآية يخالف معنى المنفعة في الحديث، والمراد بها في الآية الإخراج من النار وفي الحديث المنفعة بالتخفيف، وبهذا الجواب جزم القرطبي.

ووجهه عندي أن الشفاعة في الكفار إنما امتنعت لوجود الخبر الصادق في أنه لا يشفع فيهم أحد، وهو عام في حق كل كافر، فيجوز أن يخص منه من ثبت الخبر بتخصيصه، قال:

وحمله بعض أهل النظر على أن جزاء الكافر من العذاب يقع على كفره وعلى معاصيه، فيجوز أن الله يضع عن بعض الكفار بعض جزاء معاصيه تطييباً لقلب الشافع لا ثواباً للكافر لأن حسناته صارت بموته على الكفر هباء.

وأخرج مسلم عن أنس «وأما الكافر فيعطى حسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة».

قوله (لست هناكم) قال عياض: قوله لست هنائم كناية عن أن منزلته دون المنزلة المطلوبة قاله تواضعاً وإكباراً لما يسألونه، قال: وقد يكون فيه إشارة إلى أن هذا المقام ليس لي بل لغيري.

قلت: وقد وقع في رواية معبد بن هلال «فيقول لست لها» وفي رواية حذيفة «لست بصاحب ذاك» وهو يؤيد الإشارة المذكورة.

قوله (ويذكر خطيئته) زاد مسلم التي أصاب.

زاد همام في روايته «أكله من الشجرة، وقد نهي عنها»

قوله (ائتوا نوحا[(١)] فيأتونه) في رواية مسلم «ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً.

قوله (فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته[(٢)] التي أصاب فيستحي ربَّه منها) في رواية هشام «ويذكر سؤال ربه ما ليس له به علم».

وفي حديث أبي هريرة «إني دعوت بدعوة أغرقت أهل الأرض» ويجمع بينه وبين الأول بأنه اعتذر بأمرين: أحدهما نهي الله تعالى له أن يسأل ما ليس له به علم فخشي أن تكون شفاعته لأهل الموقف من ذلك، ثانيهما أن له دعوة واحدة محققة الإجابة وقد استوفاها بدعائه على أهل الأرض فخشي أن يطلب فلا يجاب.

قوله (ائتوا إبراهيم[(٣)]) في رواية مسلم «ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلا».

قوله (فيقول لست هناكم، ويذكر خطيئته) زاد مسلم «التي أصاب فيستحي ربه منها» وفي حديث أبي بكر «ليس ذاكم عندي» وفي رواية همام «إني كنت كذبت ثلاث كذبات» زاد شيبان في روايته «قوله إني سقيم، وقوله فعله كبيرهم هذا، وقوله لامرأته أخبريه أني أخوك».

قال البيضاوي: الحق أن الكلمات الثلاث إنما كانت من معاريض الكلام، لكن لما كانت صورتها صورة الكذب أشفق منها استصغاراً لنفسه عن الشفاعة مع وقوعها، لأن من كان أعرف بالله وأقرب إليه منزلة كان أعظم خوفاً.

---

(١) رواية الباب واليونينية ويذكر خطيئة فقط.
(٢) رواية الباب واليونينية "ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً"
(٣) رواية الباب واليونينية "ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله فيأتونه"

قوله (ائتوا موسى الذي كلمه الله) زاد همام في روايته «وقربه نجيا» .

قوله (فيأتونه) في رواية مسلم «فيأتون موسى فيقول، وفي حديث أبي هريرة «فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وكلامه على الناس، اشفع لنا» فذكر مثل آدم قولاً وجواباً لكنه قال: «إني قتلت نفساً لم أومر بقتلها».

قوله (ائتوا عيسى) زاد مسلم «روح الله وكلمته».

قوله (ائتوا محمداً ﷺ فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) قال عياض: اختلفوا في تأويل قوله تعالى: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} فقيل: المتقدم ما قبل النبوة والمتأخر العصمة، وقيل: ما وقع عن سهو أو تأويل.

وقيل المتقدم: ذنب آدم والمتأخر ذنب أمته، وقيل: المعنى أنه مغفور له غير مؤاخذ لو وقع، وقيل غير ذلك.

قلت: واللائق بهذا المقام القول الرابع.

قوله (على ربي) زاد همام «في داره فيؤذن لي» قال عياض: أي في الشفاعة.

وتعقب بأن ظاهر ما تقدم أن استئذانه الأول والأذن له إنما هو في دخول الدار وهي الجنة، وأضيفت إلى الله تعالى إضافة تشريف، ومنه {والله يدعو إلى دار السلام} على القول بأن المراد بالسلام هنا الاسم العظيم وهو من أسماء الله تعالى، قيل الحكمة في انتقال النبي ﷺ من مكانه إلى دار السلام أن أرض الموقف لما كانت مقام عرض وحساب كانت مكان مخافة وإشفاق، ومقام الشافع يناسب أن يكون في مكان إكرام ومن ثم يستحب أن يتحرى للدعاء المكان الشريف لأن الدعاء فيه أقرب للإجابة.

قلت: وتقدم في بعض طرقه أن من جملة سؤال أهل الموقف استفتاح باب الجنة، وقد ثبت في صحيح مسلم أنه أول من يستفتح باب الجنة، وفي رواية علي بن زيد عن أنس عند الترمذي «فآخذ حلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال: من هذا؟ فأقول: محمد، فيفتحون لي ويرحبون، فأخر ساجداً» وفي رواية ثابت عن أنس عند مسلم «فيقول الخازن: من؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك».

قوله (ثم أشفع) في رواية معبد بن هلال «فأقول رب أمتي، أمتي، أمتي».

قوله (فيحد لي حدا) يبين لي في كل طور من أطوار الشفاعة حداً أقف عنده، فلا أتعداه، مثل أن يقول شفعتك فيمن أخل بالجماعة ثم فيمن أخل بالصلاة ثم فيمن شرب الخمر ثم فيمن زنى وعلى هذا الأسلوب، كذا حكاه الطيبي، والذي يدل عليه سياق الأخبار أن المراد به تفضيل مراتب المخرجين في الأعمال الصالحة.

قوله (إلا من حبسه القرآن، وكان قتادة يقول عند هذا: أي وجب عليه الخلود) وفي رواية سعيد عند أحمد بعد قوله إلا من حبسه القرآن «قال فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة» الحديث وهو الذي فصله هشام من الحديث وسبق سياقه في كتاب الإيمان مفرداً، ووقع في رواية معبد بن هلال بعد روايته عن أنس من روايته عن الحسن البصري عن أنس قال: «ثم أقوم الرابعة فأقول أي رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول لي ليس ذلك لك» فذكر بقية الحديث في إخراجهم، وقد تمسك به بعض المبتدعة في دعواهم أن من دخل النار من العصاة لا يخرج منها لقوله تعالى {ومن يعص الله ورسوله فإنَّ له نار جهنم خالدين فيها أبدا} وأجاب أهل السنة بأنها نزلت في الكفار، وعلى تسليم أنها في أعم من ذلك فقد ثبت تخصيص الموحدين بالإخراج، ولعل التأبيد في حق من يتأخر بعد شفاعة الشافعين حتى يخرجوا بقبضة أرحم الراحمين كما سيأتي بيانه في شرح حديث الباب الذي يليه.

فيكون التأبيد مؤقتا، وقال عياض: استدل بهذا الحديث من جوز الخطايا على الأنبياء كقول كل من ذكر فيه ما ذكر، وأجاب عن أصل المسألة بأنه لا خلاف في عصمتهم من الكفر بعد النبوة وكذا قبلها على الصحيح، وكذا القول في الكبيرة على التفصيل المذكور، ويلتحق بها ما يزري بفاعله من الصغائر، وكذا القول في كل ما يقدح في الإبلاغ من جهة القول، واختلفوا في الفعل فمنعه بعضهم حتى في النسيان، وأجاز الجمهور السهو لكن لا يحصل التمادي، واختلفوا فيما عدا ذلك كله من الصغائر فذهب جماعة من أهل النظر إلى عصمتهم منها مطلقاً، وأولوا الأحاديث والآيات الواردة في ذلك بضروب من التأويل، ومن جملة ذلك أن الصادر عنهم إما أن يكون بتأويل من بعضهم أو بسهو أو بإذن لكن خشوا أن لا يكون ذلك موافقاً لمقامهم فأشفقوا من المؤاخذة أو المعاتبة، قال: وهذا أرجح المقالات.

وفي الحديث من الفوائد غير ما ذكر أن من طلب من كبير أمراً مهماً أن يقدم بين يدي سؤاله وصف المسئول بأحسن صفاته وأشرف مزاياه ليكون ذلك أدعى لإجابته لسؤاله، وفيه أن المسئول إذا لم يقدر على تحصيل ما سئل يعتذر بما يقبل منه ويدل على من يظن أنه يكمل في القيام بذلك فالدال على الخير كفاعله، وأنه يثني على المدلول عليه بأوصافه المقتضية لأهليته ويكون أدعى لقبول عذره في الامتناع.

قوله (ولملأت ما بينهما ريحاً) أي طيبة، وفي حديث سعيد بن عامر المذكور «لملأت الأرض ريح مسك».

قوله (لو أساء ليزداد شكراً) أي لو كان عمل عملاً سيئاً وهو الكفر فصار من أهل

النار، وقوله «ليزداد شكراً» أي فرحا ورضا، فعبر عنه بلازمه، لأن الراضي بالشيء يشكر من فعل له ذلك.

قوله (حبوا) أي زحفاً وزنه ومعناه.

٥٢ ـ باب الصراطُ جَسرُ جهنم

٦٥٧٣ ـ عن أبي هريرةَ قال: «قال أناس يا رسولَ الله، هل نرى ربَّنا يومَ القيامة؟ فقال: هل تُضارُّونَ في الشمس ليس دُونها سَحاب؟ قالوا: لا يا رسولَ الله، قال: هل تضارُّونَ في القمر ليلةَ البَدر ليس دونَهُ سحاب؟ قالوا: لا يا رسولَ الله، قال: فإنكم ترَونَهُ يومَ القيامة كذلك يجمعُ الله الناسَ فيقول: من كان يَعبُد شيئاً فَليتبعه. فيَتبعُ مَن كان يعبدُ الشمسَ، ويَتبعُ من كان يعبدُ القمرَ، ويتبعُ من كان يعبدُ الطواغيتَ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهمُ الله في غيرِ الصورةِ التي يعرِفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذُ بالله منك، هذا مكانُنا حتى يأتينا ربنا فإذا أتانا ربُّنا عرفناه، فيأتيهمُ اللهُ في الصورةِ التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه، ويُضرَبُ جسرُ جهنم، قال رسولُ الله ﷺ: فأكون أولَ من يُجيز، ودُعاءُ الرسل يومئذ: اللهمَّ سلِّم سلِّم، وبه كلاليبُ مثل شَوكِ السَّعدان، أما رأيتم شوكَ السعدان؟ قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: فإنها مثل شوكِ السَّعدان، غيرَ أنها لا يَعلمُ قدرَ عِظَمِها إلا الله، فتَخطفُ الناسَ بأعمالهم: منهمُ المُوبَقُ بعمله، ومنهم المخردَل ثم ينجو. حتى إذا فرَغَ اللهُ من القضاء بين عباده، وأرادَ أن يُخرجَ منَ النار من أراد أن يُخرج ممن كان يَشهدُ أن لا إلهَ إلا الله، أمرَ الملائكة أن يُخرجوهم فيعرِفونهم بعلامةِ آثارِ السجود، وحرَّمَ الله على النار أن تأكل منِ ابن آدمَ أثرَ السجود، فيُخرِجونهم قد امتُحِشوا، فيصَبُّ عليهم ماءٌ يقال: ماءُ الحياة، فينبُتونَ نباتَ الحِبَّة في حَميلِ السيل، ويبقى رجلٌ مُقبلٌ بوَجهه على النار فيقول: يا ربِّ قد قَشبني ريحها وأحرَقَني ذكاؤها، فاصرِف وجهي عن النار، فلا يَزال يدعو اللهَ فيقول: لعلك إن أعطيتُكَ أن تَسألني غيرَه فيقول: لا وعزَّتك، لا أسألكَ غيرَه، فيصرفُ وجههُ عنِ النار. ثم يقول بعد ذلك: يا رب قرِّبني إلى باب الجنَّة، فيقول: أليس قد زعمتَ أن لا تسألني غيره؟ ويلكَ يا ابنَ آدمَ ما أغدركَ. فلا يزال يدعو، فيقول: لعلي إن أعطيتكَ ذلك تسألني غيرَه، فيقول: لا وعزَّتك، لا أسألكَ غيرَه، فيُعطي اللهَ ما شاء من عهودٍ ومواثيقَ أن لا يسألهُ غيره، فيقرِّبه إلى باب الجنة، فإذا رأى ما فيها سكتَ ما شاء الله أن يسكتَ، ثم يقول: ربِّ ادخلني الجنة. ثم يقول: أو ليسَ قد زعمتَ أن لا تسألني غيره. ويلكَ يا ابنَ آدمَ ما أغدَرك. فيقول: يا ربِّ لا تَجعَلني أشقى خَلقك. فلا يزالُ يدعو حتى يضحَكَ، فإذا ضحك منهُ أذنَ له بالدخول فيها، فإذا دَخل فيها قيل: تَمنَّ من كذا فيتمنى. ثم يقال له تمنَّ من كذا فيتمنى،

حتى تَنقطعَ به الأماني، فيقول له: هذا لَك ومثلهُ معه. قال أبو هريرةَ: وذلكَ الرجلُ آخرُ أهل الجنَّة دخولاً».

٦٥٧٤ - قال عطاء وأبو سعيدٍ الخُدريّ جالسٌ مع أبي هريرةَ لا يُغيرُ عليه شيئاً من حديثهِ حتى انتهى إلى قوله «هذا لك ومثلهُ معهَ» قال أبوسعيد: «سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: هذا لك وعشرةُ أمثاله» قال أبو هريرة: حفظتُ «مثلهُ معَه».

قوله (باب الصراط جسر جهنم) أي الجسر المنصوب على جهنم لعبور المسلمين عليه إلى الجنة.

قوله (هل تُضَارُّون) أي لا تضرون أحداً ولا يضروكم بمنازعة ولا مجادلة ولا مضايقة، وجاء بتخفيف الراء من الضير وهو لغة في الضر أي لا يخالف بعض بعضاً فيكذبه وينازعه فيضيره بذلك، يقال ضاره يضيره، وقيل المعنى لا تضايقون أي لا تزاحمون كما جاء في الرواية الأخرى.

قوله (ترونه[(١)] كذلك) المراد تشبيه الرؤية بالرؤية في الوضوح وزوال الشك ورفع المشقة والاختلاف.

قال النووي: مذهب أهل السنة أن رؤية المؤمنين ربهم ممكنة ونفتها المبتدعة من المعتزلة والخوارج، وهو جهل منهم، فقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وسلف الأمة على إثباتها في الآخرة للمؤمنين.

قوله (ومن[(٢)] كان يعبد الطواغيت) الطواغيت جمع طاغوت وهو الشيطان والصنم ويكون جمعاً ومفردا ومذكرا ومؤنثا، وقد تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك في تفسير سورة النساء، وقال الطبري: الصواب عندي أنه كل طاغ طغى على الله يعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبد وإما بطاعة ممن عبد إنساناً كان أو شيطاناً أو حيوانا أو جمادا، قال فاتباعهم لهم حينئذ باستمرارهم على الاعتقاد فيهم، ويحتمل أن يتبعوهم بأن يساقوا إلى النار قهرا. ووقع في حديث أبي سعيد الآتي في التوحيد «فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب كل الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم» وفيه إشارة إلى أن كل من كان يعبد الشيطان ونحوه ممن يرضى بذلك أو الجماد والحيوان داخلون في ذلك، وأما من كان يعبد من لا يرضى بذلك كالملائكة والمسيح فلا.

قوله (وتبقى هذه الأمة) قال ابن أبي جمرة: يحتمل أن يكون المراد بالأمة أمة محمد ﷺ، ويحتمل أن يحمل على أعم من ذلك فيدخل فيه جميع أهل التوحيد حتى من الجن، ويدل عليه ما في بقية الحديث أنه يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر.

قلت: ويؤخذ أيضا من قوله في بقية هذا الحديث «فأكون أول من يجيز» فإن فيه إشارة إلى أن الأنبياء بعده يجيزون أممهم.

قوله (فيقال لهم كذبتم[(٣)]) قال ابن بطال: في هذا الحديث أن المنافقين يتأخرون مع

(١) رواية الباب واليونينية "ترونه يوم القيمة كذلك"
(٢) رواية الباب واليونينية "ويتبع من كان يعبد الطواغيت" .
(٣) رواية الباب واليونينية بدون "فيقال لهم كذبتم"

المؤمنين رجاء أن ينفعهم ذلك بناء على ما كانوا يظهرونه في الدنيا، فظنوا أن ذلك يستمر لهم، فميز الله تعالى المؤمنين بالغرة والتحجل إذ لا غرة للمنافق ولا تحجيل.

قلت: قد ثبت أن الغرة والتحجيل خاص بالأمة المحمدية، فالتحقيق أنهم في هذا المقام يتميزون بعدم السجود وبإطفاء نورهم بعد أن حصل لهم، ويحتمل أن يحصل لهم الغرة والتحجيل ثم يسلبان عند إطفاء النور.

قوله (فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون) قال ابن العربي: إنما استعاذوا منه أولاً لأنهم اعتقدوا أن ذلك الكلام استدراج، لأن الله لا يأمر بالفحشاء، ومن الفحشاء اتباع الباطل وأهله، ولهذا وقع في الصحيح «فيأتيهم الله في صورة -أي بصورة- لا يعرفونها وهي الأمر باتباع أهل الباطل، فلذلك يقولون «إذا جاء ربنا عرفناه» أي إذا جاءنا بما عهدناه منه من قول الحق.

وقال ابن الجوزي: معنى الخبر يأتيهم الله بأهوال يوم القيامة ومن صور الملائكة بما لم يعهدوا مثله في الدنيا فيستعيذون من تلك الحال ويقولون: إذا جاء ربنا عرفناه، أي إذا أتانا بما نعرفه من لطفه، وهي الصورة التي عبر عنها بقوله «يكشف عن ساق» أي عن شدة.

وقال القرطبي: هو مقام هائل يمتحن الله به عباده ليميز الخبيث من الطيب، وذلك أنه لما بقي المنافقون مختلطين بالمؤمنين زاعمين أنهم منهم ظانين أن ذلك يجوز في ذلك الوقت كما جاز في الدنيا امتحنهم الله بأن أتاهم بصورة هائلة قالت للجميع أنا ربكم، فأجابه المؤمنون بإنكار ذلك لما سبق لهم من معرفته سبحانه وأنه منزه عن صفات هذه الصورة، فلهذا قالوا نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً، حتى أن بعضهم ليكاد ينقلب أي يزل فيوافق المنافقين.

قال: وهؤلاء طائفة لم يكن لهم رسوخ بين العلماء ولعلهم الذين اعتقدوا الحق وحوموا عليه من غير بصيرة، وقال الخطابي: هذه الرؤية غير التي تقع في الجنة إكراماً لهم، فإن هذه للامتحان وتلك لزيادة الإكرام كما فسرت به «الحسنى وزيادة» قال: ولا إشكال في حصول الامتحان في الموقف لأن آثار التكاليف لا تنقطع إلا بعد الاستقرار في الجنة أو النار.

قال: ويشبه أن يقال إنما حجب عنهم تحقق رؤيته أولا لما كان معهم من المنافقين الذين لا يستحقون رؤيته، فلما تميزوا رفع الحجاب فقال المؤمنون حينئذ: أنت ربنا.

قلت: وإذا لوحظ ما تقدم من قوله «إذا تعرف لنا عرفناه» وما ذكرت من تأويله ارتفع

(١) رواية الباب واليونينية [فأكون أنا أول] بدون لفظ «وأمّتي».

الأشكال.

قوله (قال رسول الله ﷺ فأكون أنا وأمتي أول[١] من يجيز) في رواية شعيب «يجوز بأمته».

قال الأصمعي: جاز الوادي مشى فيه، وأجازه قطعه.

وقال النووي: المعنى أكون أنا وأمتي أول من يمضي على الصراط ويقطعه، يقال جاز الوادي وأجازه إذا قطعه وخلفه.

قوله (ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم) في رواية شعيب «ولا يتكلم يومئذأحد إلا الرسل» وفي رواية إبراهيم بن سعد «ولا يكلمه إلا الأنبياء، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم». وللترمذي من حديث المغيرة: «شعار المؤمنين على الصراط: رب سلم سلم».

ولا يلزم من كون هذا الكلام شعار المؤمنين أن ينطقوا به بل تنطق به الرسل يدعون للمؤمنين بالسلامة تسمى ذلك شعاراً لهم. فبهذا تجتمع الأخبار.

وفي حديث أبي سعيد من الزيادة «فيمر المؤمن كطرف العين وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب» وفي حديث حذيفة وأبي هريرة معاً، فيمر أولهم كمر البرق ثم كمر الريح ثم كمر الطير وشد الرحال تجري بهم أعمالهم.

قوله (وبه كلاليب) الضمير للصراط. وفي رواية حذيفة وأبي هريرة معاً «وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به».

قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذه الكلاليب هي الشهوات المشار إليها في الحديث الماضي «حفت النار بالشهوات» قال: فالشهوات موضوعة على جوانبها فمن اقتحم الشهوة سقط في النار لأنها خطاطيفها: وفي حديث حذيفة «وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبي الصراط يمينا وشمالا» أي يقفان في ناحيتي الصراط.

والمعنى أن الأمانة والرحم لعظم شأنهم وفخامة ما يلزم العباد من رعاية حقهما يوقفان هناك للأمين والخائن والمواصل والقاطع فيحاجان عن المحق ويشهدان على المبطل.

ويمكن أن يكون المراد بالأمانة ما في قوله تعالى {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض} الآية، وصلة الرحم ما في قوله تعالى: {واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام} فيدخل فيه معنى التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، فكأنهما اكتنفتا جنبتي الإسلام الذي هو الصراط المستقيم وفطرتي الإيمان والدين القويم.

قوله (فتخطف الناس بأعمالهم) قال الزين بن المنير: تشبيه الكلاليب بشوك السعدان خاص بسرعة اختطافها وكثرة الانتشاب فيها مع التحرز والتصون تمثيلاً لهم بما عرفوه في

الدنيا وألفوه بالمباشرة، ثم استثنى إشارة إلى أن التشبيه لم يقع في مقدارهما.

قوله (ومنهم المخردل) معناه أنها تقطعهم عن لحوقهم بمن نجا، وقيل المخردل المصروع ورجحه ابن التين فقال هو أنسب لسياق الخبر.

قوله (ثم ينجو) قال ابن أبي جمرة: يؤخذ منه أن المارين على الصراط ثلاثة أصناف: ناج بلا خدش، وهالك من أول وهلة، ومتوسط بينهما يصاب ثم ينجو.

وكل قسم منها ينقسم أقساماً تعرف بقوله «بقدر أعمالهم» واختلف في ضبط مكدوس فوقع في رواية مسلم بالمهملة ورواه بعضهم بالمعجمة ومعناه السوق الشديد ومعنى الذي بالمهملة الراكب بعضه على بعض.

قوله (حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده) قال ابن أبي جمرة: معناه وصل الوقت الذي سبق في علم الله أنه يرحمهم.

قال النووي: وظاهر الحديث أن النار لا تأكل جميع أعضاء السجود السبعة وهي الجبهة واليدان والركبتان والقدمان، وبهذا جزم بعض العلماء.

وقد استنبط ابن أبي جمرة من هذا أن من كان مسلماً ولكنه كان لا يصلي لا يخرج إذ لا علامة له، لكن يحمل على أنه يخرج في القبضة لعموم قوله لم يعملوا خيراً قط.

قوله (فينبتون نبات الحِبَّة) تقدم في كتاب الإيمان أنها بزور الصحراء والجمع حِبَب.

قوله (في حميل السيل) أي ما يحمله السيل.

قال ابن أبي جمرة فيه إشارة إلى سرعة نباتهم، لأن الحبة أسرع في النبات من غيرها، وفي السيل أسرع لما يجتمع فيه من الطين الرخو الحادث مع الماء مع ما خالطه من حرارة الزبل المجذوب معه.

قوله (ويبقى رجل) تقدم القول في آخر أهل النار خروجاً منها في شرح الحديث الثاني والعشرين من الباب الذي قبله، ووقع في وصف هذا الرجل أنه كان نباشاً وذلك في حديث حذيفة كما تقدم في أخبار بني إسرائيل «أن رجلاً كان يسيء الظن بعمله، فقال لأهله أحرقوني» الحديث وفي آخره «كان نباشاً» ووقع في حديث حذيفة عن أبي بكر الصديق عند أحمد وأبي عوانة وغيرهما وفيه «ثم يقول الله: انظروا هل بقي في النار أحد عمل خيراً قط؟ فيجدون رجلاً فيقال له: هل عملت خيراً قط؟ فيقول: لا، غير أني كنت أسامح الناس في البيع» الحديث.

قوله (قد قشبني ريحها) قال الخطابي: قشبه الدخان إذا ملأ خياشيمه وأخذ يكظمه، وأصل القشب خلط السم بالطعام يقال قشبه إذا سمه «ثم استعمل فيما إذا بلغ الدخان

والرائحة الطيبة منه غايته.

وقال النووي: معنى قشبني سمني وآذاني وأهلكني، هذا كما قاله جماهير أهل اللغة.

قلت: ولا يخفى حسن قول الخطابي.

قوله (وأحرقني ذكاؤها) أي كثر لهبها واشتد اشتعالها ووهجها.

قوله (يا رب لا تجعلني أشقى خلق) المراد بالخلق هنا من دخل الجنة.

قوله (هذا لك ومثله معه، قال أبو سعيد سمعت رسول الله ﷺ) قال ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى: في هذا الحديث من الفوائد جواز مخاطبة الشخص بما لا تدرك حقيقته، وجواز التعبير عن ذلك بما يفهمه، وأن الأمور التي في الآخرة لا تشبه بما في الدنيا إلا في الأسماء.

وأن التكليف لا ينقطع إلا بالاستقرار في الجنة أو النار، وأن امتثال الأمر في الموقف يقع بالاضطرار.

وفيه فضيلة الإيمان لأنه لما تلبس به المنافق ظاهراً بقيت عليه حرمته إلى أن وقع التمييز بإطفاء النور وغير ذلك، وأن الصراط مع دقته وحدته يسع جميع المخلوقين منذ آدم إلى قيام الساعة.

وفيه أن النار مع عظمها وشدتها لا تتجاوز الحد الذي أمرت بإحراقه .

وفيه جواز سؤال الشفاعة خلافاً لمن منع محتجاً بأنها لا تكون إلا لمذنب.

قال عياض: وفات هذا القائل أنها قد تقع في دخول الجنة بغير حساب وغير ذلك كما تقدم بيانه، مع أن كل عاقل معترف بالتقصير فيحتاج إلى طلب العفو عن تقصيره، وكذا كل عامل يخشى أن لا يقبل عمله يحتاج إلى الشفاعة في قبوله.

قال: ويلزم هذا القائل أن لا يدعو بالمغفرة ولا بالرحمة وهو خلاف ما درج عليه السلف في أدعيتهم.

وفيه إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة.

وفيه أن جماعة من مذنبي هذه الأمة يعذبون بالنار ثم يخرجون بالشفاعة والرحمة خلافاً لمن نفى ذلك عن هذه الأمة وتأول ما ورد بضروب متكلفة. والنصوص الصريحة متضافرة متظاهرة بثبوت ذلك.

٥٣ ـ باب في الحَوض

وقولِ الله تعالى: {إنا أعطيناكَ الكوثر}/الكوثر:١/

وقال عبدُ الله بن زيدٍ: قال النبيُّ ﷺ «اصبروا حتى تَلقوني على الحوض»

٦٥٧٥ ـ عن عبدِ الله عن النبيِّ ﷺ: «أنا فَرَطكم على الحَوض».

[الحديث ٦٥٧٥ - طرفاه في: ٦٥٧٦، ٧٠٤٩]

٦٥٧٦ ـ عن عبد الله رضيَ الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «أنا فَرَطكم على الحوض، وليُرفَعَنَّ رجال منكم ثم ليُختلَجُنَّ دُوني، فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيقال: إنكَ لا تدري ما أحدَثوا بَعدك».

٦٥٧٧ ـ عن ابن عمرَ رضيَ اللهُ عنهما عن النبي ﷺ قال: «أمامكم حَوضٌ كما بينَ جَرباءَ وأذرُحَ».

٦٥٧٨ ـ عن أبي بِشرٍ وعطاء بن السائبِ عن سعيدِ بن جُبَير «عن ابن عباسٍ رضيَ الله عنهما قال: الكوثرُ الخيرُ الكثير الذي أعطاهُ اللهُ إيّاه. قال أبو بِشرٍ قلت لسعيدٍ إن أناساً يزعمون أنه نهرٌ في الجنة، فقال سعيد: النهرُ الذي في الجنة مِن الخير الذي أعطاه اللهُ إياه».

٦٥٧٩ ـ عن عبد اللهِ بن عمرو قال النبيُّ ﷺ: «حَوضي مَسيرة شهر، ماؤهُ أبيضُ من اللبن، وريحهُ أطيبُ من المِسك وكيزانهُ كنجوم السماء، مَن شَرِبَ منها فلا يَظمأُ أبداً».

٦٥٨٠ ـ عن أنس بن مالك رضيَ الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: إنَّ قَدْرَ حَوضي كما بين أيلةَ وصنعاء من اليَمن، وإن فيها منَ الأباريق كعدَدِ نجوم السماء».

٦٥٨١ ـ عن أنس بن مالكٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «بينما أنا أسيرُ في الجنة، إذا أنا بنهرٍ حافتاهُ قِبابُ الدُّرِّ المجوَّف، قلتُ: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكَوثَرُ الذي أعطاكَ ربُّك، فإذا طِيبهُ -أو طينُه- مِسكٌ أذفَر. شَكَّ هُدْبَة».

٦٥٨٢ ـ عن أنسٍ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «لَيَرِدَنَّ عليَّ ناسٌ من أصيحابي الحوضَ حتى إذا عَرَفتُهم اختَلَجوا دُوني، فأقول: أصحابي، فيقولُ: لا تدري ما أحدَثوا بعدك».

٦٥٨٣ ـ عن سهلِ بن سعدٍ قال: قال النبيُّ ﷺ: «إني فَرَطكم على الحَوض: من مرَّ عليَّ شَرِبَ، ومن شَرِبَ لم يَظمأ أبدا لَيرِدَنَّ عليَّ أقوامٌ أعرِفُهم ويعرِفوني، ثم يُحالُ بيني وبينهم».

[الحديث ٦٥٨٣ - طرفه في: ٧٠٥٠]

٦٥٨٤ ـ «قال أبو حازم: فسمعَني النُّعمانُ بن أبي عيّاشٍ فقال: هكذا سمعتَ من سهل؟ فقلتُ: نعم. فقال: أشهدُ على أبي سعيد الخُدريِّ لسمعتُهُ وهو يزيدُ فيها فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول سُحقاً سُحقاً لمن غيَّر بعدي».

[الحديث ٦٥٨٤ - طرفه في: ٧٠٥١]

٦٥٨٥ ـ عن أبي هريرة أنه كان يُحدِّث أن رسولَ الله ﷺ قال: «يَرِدُ عليَّ يومَ القيامةِ رهطٌ من أصحابي فيُجلَونَ عن الحوض، فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيقول: إنك لا علمَ لك بما أحدَثوا بعدك، إنهم ارتدُّوا على أدبارهم القهقرَى».

[الحديث ٦٥٨٥ - طرفه في: ٦٥٨٦]

٦٥٨٦ ـ عن ابن المسيَّب أنه كان يُحدِّثُ «عن أصحابِ النبيِّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: يَرِدُ عليَّ الحوضَ رجالٌ من أصحابي فيُحَلَّئونَ عنه، فأقول يا ربِّ أصحابي، فيقول: إنك لا علمَ لك بما أحدَثوا بعدك، إنهم ارتدُّوا على أدبارِهمُ القهقرَى».

٦٥٨٧ ـ عن أبي هريرةَ عن النبي ﷺ قال: «بَينا أنا نائم فإذا زُمرة، حتى إذا عَرَفتهم خرجَ رجل من بيني وبينهم فقال: هلمَّ، فقلتُ: أين؟. قال: إلى النار والله، قلتُ وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدُّوا بعدكَ على أدبارهم القهقرَى. ثُم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرجَ رَجلٌ من بيني وبينهم فقال: هلمَّ، قلتُ: أين؟. قال: إلى النار والله. قلتُ: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدُّوا بعدَك على أدبارِهمُ القهقرَى، فلا أُراه يَخلُصُ منهم إلا مثلُ همل النَّعَم».

٦٥٨٨ ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومِنبري روضةٌ من رياض الجنَّةِ، ومِنبري على حَوضي».

٦٥٨٩ ـ عن جندبٍ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «أنا فَرَطُكم على الحَوض».

٦٥٩٠ ـ عن عُقبةَ رضيَ الله عنه أن النبيَّ ﷺ خرجَ يوماً فﷺ على أهل أُحُدٍ صلاتَه على الميِّت، ثم انصرفَ على المنبر فقال: «إني فَرَطٌ لكم، وأنا شهيدٌ عليكم، وإني والله لأنظرُ إلى حَوضي الآن. وإني أُعطيتُ مَفاتيحَ خزائن الأرض -أو مفاتيحَ الأرض- وإني والله ما أخافُ عليكم أن تُشركوا بعدي، ولكن أخاف أن تَنافسوا فيها».

٦٥٩١ ـ عن ابن وهبٍ يقول: «سمعتُ النبيَّ ﷺ وذكرَ الحوض فقال: كما بين المدينةِ وصنعاء».

٦٥٩٢ ـ عن حارثةَ سمعَ النبيَّ ﷺ قال: حوضهُ ما بينَ صنعاءَ والمدينة، فقال له المستوردُ: ألم تسمعهُ قال الأواني؟. قال: لا. قال المستوردُ: تُرَى فيه الآنيةُ مثلَ الكواكب».

٦٥٩٣ ـ عن بنِ أبي مُليكة «عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رضيَ الله عنهما قالت: قال النبيُّ ﷺ: إني على الحوض حتى أنظرَ من يَرِدُ عليَّ منكم، وسيُؤخذُ ناسٌ دوني، فأقول: ياربِّ مني ومن أمتي، فيُقال: هل شَعَرتَ ما عملوا بعدَك؟ والله ما برحوا يرجعونَ على أعقابهم». فكان ابنُ أبي مُلكيةَ يقول: اللهمَّ إنا نَعوذ بك أن نرجعَ على أعقابِنا، أو نُفتن عن دينِنا.

على أعقابِكم تَنكِصون: تَرجِعونَ على العقب.

[الحديث ٦٥٩٣ - طرفه في: ٧٠٤٨]

قوله (باب في الحوض) أي حوض النبي ﷺ، وجمع الحوض حياض وأحواض وهو مجمع الماء، وإيراد البخاري لأحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة وبعد نصب الصراط إشارة منه إلى أن الورود على الحوض يكون بعد نصب الصراط والمرور عليه.

قوله (وقول الله تعالى إنا أعطيناك الكوثر) أشار إلى أن المراد بالكوثر النهر الذي

يصب في الحوض فهو مادة الحوض كما جاء صريحاً في سابع أحاديث الباب، ومضى في تفسير سورة الكوثر من حديث عائـ ـة نحوه مع زيادة بيان فيه، وتقدم الكلام على حديث ابن عباس أن الكوثر هو الخير الكثير، وجاء اطلاق الكوثر على الحوض في حديث المختار بن فلفل عن أنس في ذكر الكوثر «هو حوض ترد عليه أمتي» وقد اشتهر اختصاص نبينا ﷺ بالحوض.

قال القرطبي في «المفهم»: تبعاً للقاضي عياض في غالبه: مما يجب على كل مكلف أن يعمله ويصدق به أن الله سبحانه وتعالى قد خص نبيه محمداً ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي، إذ روى ذلك عن النبي ﷺ من الصحابة نيف على الثلاثين، منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين وفي غيرهما بقية ذلك مما صح نقله واشتهرت رواته، ثم رواه عن الصحابة المذكورين من التابعين أمثالهم ومن بعدهم أضعاف أضعافهم وهلم جرا، وأجمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف.

قوله (وليُرفَعَن) أي يظهرهم الله لي حتى أراهم.

قوله (ثم لَيُخْتَلَجُنَّ) أي ينزعون أو يجذبون مني.

قوله (وريحه أطيب من المسك) وزاد مسلم من حديث أبي ذر وثوبان «وأحلى من العسل» ومثله لأحمد عن أبيٍّ بن كعب.

وعند الترمذي في حديث ابن عمر «وماؤه أشد برداً من الثلج».

قوله (وكيزانه كنجوم السماء) في حديث أنس الذي بعده «وفيه من الأباريق كعدة نجوم السماء».

وفي حديث المستورد في أواخر الباب «فيه الآنية مثل الكواكب».

قوله (من شرب منها) أي من الكيزان، وفي رواية الكشميهني «من شرب منه» أي من الحوض.

قوله (فأقول سحقاً سحقا) ومعناه بعدا بعدا، ونصب بتقدير ألزمهم الله ذلك.

قوله (ثم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال هلم) المراد بالرجل الملك الموكل بذلك.

قوله (إنهم ارتدوا(١)القهقرى) أي رجعوا إلى خلف.

قوله (فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم) يعني من هؤلاء الذين دنوا من الحوض وكادوا يَرِدُونه فصُدُّوا عنه، والهَمَل الإبل بلا راع.

والمعنى أنه لا يرده منهم إلا القليل، لأن الهمل في الإبل قليل بالنسبة لغيره.

---

(١) رواية الباب "إنهم ارتدوا بعدي على أدبارهم القهقرى" ورواية اليونينية "إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى"